

المحاضرة الأولى: إشكالية أصل الفلسفة الإغريقية.

تمهيد .

انتشرت عبارة "المعجزة اليونانية" le miracle Grecque للدلالة على الإنجاز العلمي والفلسفي النوعي لهذه الحضارة بمعزل عن تأثير بقية الحضارات السابقة أو المعاصرة لها. ومن المفيد أن نعرف أن مشكلة أصالة هذه الفلسفة من عدمه، ليست وليدة الأزمة الحالية، بل كان الإغريق ذاتهم قد طرحوا سؤال العلاقة الحضارية بينهم وبين الحضائر المجاورة لها، خاصة في آسيا الوسطى وإفريقيا، وهم ذاتهم، أي الإغريق، لم يتفقوا على حدود النقل الحضاري الذي حدث، فهناك من أنكر وهناك من اعترف عن طيب خاطر. وفي الأزمة الحديثة، تم احياء المسألة على أساس التقابل بين الشرق والغرب، وهو التقابل الذي تم تدوينه منذ هيرودوت، وفي الأزمنة المعاصرة، بعد وفاة هيجل بالذات، والذي خلف أثرا قويا على كل الفلسفات اللاحقة له، واصل مؤرخي الفلسفة القديمة جدل الأصالة والنقل، من خلال اظهار تفاصيل العلاقة الفكرية بين اليونان بوصفهم غربيين وبين الفرس والفرعنة والهنود بوصفين شرقيين. لذا يمكن القول بأن إشكالية أصل الفلسفة الإغريقية، وبمجرد أن طرحت، لم تغلق إلى اليوم. والمسألة التي تثير انتباهنا، في هذا السياق، هو أن هذه الإشكالية ليست نتيجة عوامل معرفية وفلسفية بحتة، بل أن العوامل الحضارية والتاريخية قد لعبت دورا هاما في تحديد المواقف العلمية، أي هناك تأثير لقوى غير علمية وغير تاريخية في تحديد المواقف من هذه المشكلة الفكرية والتاريخية معا. والحق أن هذه القوى غير العلمية، كانت حاضرة عند الإغريق في عصر الدولة المدينة والانتصار على الفرس في معركة سلاميس، كما أنها حاضرة اليوم، في سياق السيطرة الغربية الحضارية على الشرق والعالم ككل. لذا فإن مشكلة أصل الفلسفة الإغريقية لا تطرح على المستوى العلمي الخالص، بل أن العوامل العسكرية والاقتصادية والحضارية عامة، تتدخل في أغلبية المشكلة. بمعنى أن الوضعية الحضارية تتدخل في تحديد التاريخ السابق على هذه الوضعية بالذات، فالقوي لا يمكن أن يعترف بأنه نقل وأخذ من الضعيف، والضعيف بدوره، يتغنى بقوته التاريخية المتخيلة. إن مشكلة أصل الفلسفة الإغريقية تدخل في نطاق أوسع منها، وهي مشكلة العلاقات الحضارية وصراع الثقافات والمركزية الإثنو- فكرية. وعندما نتحدث عن المركزية، فلا يمكن أن نستثني ثقافة عن أخرى، إذ أن المنطقة المظلمة لأي حضارة هي اعتقادها بالنقاء الحضاري الخاص. ففي حين أن الكل يروج تأثيره الحضاري على الغير، بخاصة الجيران جغرافيا، فإن البعض فقط من يعترف بنقله العلمية والفلسفية والدينية. ومشكلة المركزية شبيهة بنمو كرة الثلج، تبدأ صغيرة بين الأحياء والمدن والجهات، لتنتقل وتشمل الثقافات والقارات والأنواع أيضا. ونحن نسمع اليوم بالاحتجاج على مركزية النوع الإنساني على بقية الأنواع الحيوانية والنباتية الأخرى.¹ وهنا نرى تدرج المركزية بين أعراق النوع الإنساني لتتسع إلى مركزية الإنسان في النظام الحيوي ككل. لذا فكل من يتهم غيره بالمركزية ويستثني نفسه، فقد وقع في مركزية لا شعورية، في هذا الشأن يقول أحد أحسن من درس المركزية الإسلامية، عبد الله إبراهيم: "كما نظر أرسطو إلى اليونان

¹ دومينيك لوكور: فيم تفيد الفلسفة إذن؟ من علوم الطبيعة إلى العلوم السياسية، ترجمة محمد هشام، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2011، ص 251.

باعتبارها مركز العالم، نظر المسعودي إلى العراق باعتبارها قلب العالم".² لذا فلا يمكن أن نستثني أحدا من مركزيته، لأنها طبيعة متأصلة في كل الحيوانات العاقلة وغير العاقلة. إن المركزية بمثابة كوجيتو الجسد الحي. فحتى البروفيسور امرتيا صن، والذي نال جائزة نوبل العالمية، لم يستطع التحرر من مركزيته الهندية من خلال اثبات بدايات الطباعة والنظام العشري في الهند.³ والملاحظ أن هذه المركزية لم تستبعد الغرب فحسب، بل استبعدت الهويات الشرقية أيضا، حيث تم إهمالها مثل الصين ومصر والميزوبوتامي... الخ. الشرق يتحد بقوة عندما يتعلق الأمر بخصم عريق مثل الغرب، لكن الهويات المُشكلة له تتقاتل فيها بينها دون هوادة عندما يتعلق الأمر بتحديد المركزية الشرقية !

يتحول تأريخ أصول الفلسفة اليونانية إلى ورقة صراع بين العقلانية الشرقية والعقلانية الغربية. لذا نجد مثلا أحد الأستاذة المصريين الذي يدرس حتى اليوم في جامعة القاهرة، يكتب عدة أجزاء تحت عنوان "تأريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي".⁴ والأكيد أن غرضه هو إظهار مدى النقول الهائلة التي نقلها الإغريق من الشرق. لكن بالنسبة لنا، فإن مفهوم الشرق ذاته يطرح مشكلا عويصا بين ممثلي العقلانية الشرقية ذاتها. لذا استعملنا في بداية الفقرة عبارة "أصول الفلسفة اليونانية" بدل الأصل بالمفرد. لأن أصحاب العقل الشرقي غير متجانسين، بل أن العقل الشرقي كماهية غير متجانس، أي أن هناك عقول شرقية متعددة. وعندما يتعلق الأمر بمسألة ما هي الحضارة الشرقية التي استمد منها الإغريق معارفهم الأولية، سنلاحظ خصومة كبيرة بين ممثلي الحضارة الشرقية، فالعقل المصري يرى أنه الأجدر والأقدم، والعقل الهندي لا يرضى بالتخلي عن حقوقه الرمزية في تصدير حكمته إلى بعض المدارس الإغريقية، كما أن الحضارة الصينية تجد ما يتطابق مع هذه الفلسفة. ولعل الأفارقة في ليبيا أيضا يتحدثون عن أثر بعض المدارس الأخلاقية على الفلسفة في أثينا... الخ. لذا سرعان ما يتحول الاتحاد الحضاري الشرقي إلى حلبة للحزبات وخطف رأس المال الرمزي الشرقي فيما يمكن أن نسميه بالحكمة الشرقية القديمة، كل لصالح مركزيته المخصوصة. وحتى المنظور الغربي، الذي قد نجده في محاولات بعض الألمان، مثل كارل ياسبرز، الذي خط مشروع "تأريخ الفلسفة بمنظور عالمي" من خلال اعتقاده بأن "الفلسفة العالمية لن تصبح حقيقة إلا بالانفتاح على الكل".⁵ إلا أنه في النهاية لم يستطع توزيع الحقوق التاريخية على أهلها، وفي تقديرنا أنه لم يحدث أن تم ذلك، ولو عند أكبر الفلاسفة انفتاحا وسعة. لأن مؤرخ الفلسفة ينطلق من تاريخ محدود موجه مقارنة بما يمكن أن نسميه التاريخ الخام للفلسفة. لا يمكن للمؤرخ أن يقبض على التاريخ وهو داخل تاريخ محدد، ولا يمكن أن يصف الحقيقة، وهو محدود القدرات والأهداف، بل أنه مُوجه من حيث لا يدري، من قوى غير علمية وغير تاريخية.

² عبد الله إبراهيم: المركزية الإسلامية - صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2001، ص 52-53.

³ أمارتيا صن: الهوية والعنف - وهم المصير الحتمي، ترجمة سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، عدد 352، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008، ص 67.

⁴ مصطفى النشار: تأريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، الجزء الأول: السابقون على سقراط، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة، 1994.

⁵ كارل ياسبرز: تأريخ الفلسفة بنظرة عالمية، ترجمة عبد الغفار مكاي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994، ص 86.

نحن إذن أمام تأريخ ايديولوجي للفلسفة اليونانية، وحتى من حاول الخروج من هذه المنظورات الضيقة، فإنه لا محالة، يقع في ضرب من التلفيق والسطيحة التي تستهدف إرضاء الجميع. والمشكلة هنا أعمق من المشكلة الأولى المتحيزة لصالح الشرق أو الغرب. لأن الموقف الوسطي لا يعدو أن يكون محاولة مصالحة، وهذا ما يجعل المؤرخ يتجاوز الحقائق التاريخية لصالح هدف غير علمي وغير تاريخي وهو الاعتراف. إن الاعتراف مسألة سياسية ومسألة تعايش حضاري وليست مسألة علمية تاريخية خالصة. لذا نجد في بعض الأحيان أن التلفيق السطحي أخطر من تأثير القوى غير العلمية، لأنه يوزع الحقوق والإسهامات الحضارية دون دراية ودون استحقاق موثوق.

مع العلم أن اصطفاة مؤرخي الفلسفة مع هذا التيار أو ذاك، لا يخضع دوماً إلى الانتماء الحضاري. فقد يكون المؤرخ شرقياً لكنه يرفع الأصالة عن الشرق، وقد يكون الفيلسوف غربياً فيضف الأصالة على الشرق. ومحاولة تسامي هؤلاء المؤرخين، مثل " عبد الرحمن بدوي" في الحالة الشرقية والذي تبرا من أي افتراض لبداية الفلسفة من الشرق،⁶ ومثل "برنال" الذي جعل السواد الإفريقي قد شكل الفكر الإغريقي، وهو الذي قال بصراحة أن "العنوان الفرعي لأثينا السوداء: "تلفيق بلاد اليونان" هو رد على النموذج الآري المتطرف بإحياء النموذج القديم لهيرودوتس".⁷ هذا التسامي على الانتماءات الحضارية يطرح مشكلة لا تقل خطراً عن التعصب للثقافة التي ينتمي إليها المفكر. فالتمركز بطرح مشكلة لا تختلف عن المشكلة التي تطرحها ظاهرة التسامي على التمركز.

نحن على يقين بأن سؤال الأصول أصعب الأسئلة التي جابهت الفكر الفلسفي منذ القديم، بل أن أهم مواضيع الفلسفة كانت الكشف عن المبادئ الأولى للظواهر، أي أصولها. والظاهرة التي نحن بصدد بحثها هي إشكالية نشأة الفلسفة الإغريقية. وهي إشكالية لأنها تتفرع لعدة أسئلة جزئية يشكل استجماعها في إشكالية حقيقة يصعب الجزم فيها نظراً لتداخل عدة تخصصات مثل التاريخ والأركيولوجيا وتاريخ الأديان والإيديولوجية وعلوم التأويل والفيلولوجيا والعلم والفلسفة وعلم الاجتماع... الخ. ويمكن صوغها على الطريقة التالي: هل البحث عن أصول الفلسفة الإغريقية يعتبر بحث علمي تاريخي أم بحث حضاري راهني؟ أما الأسئلة المطروحة أساساً فهي:

- هل نشأت الفلسفة الإغريقية نشأة مستقلة عن بقية الحضارات السابقة عليها تاريخياً؟ أم أن هناك أثر للحضارات الشرقية في تشكل هذا الفكر الفلسفي؟
- كيف نبرر ظهور نظرية العبقورية الإغريقية؟ سؤال يتجاوز صدقية هذه النظرية إلى البحث عن سبب ظهورها بالذات. لأن الكشف عن الخلفية الذهنية لظهور المواقف الغربية كفيل يفهمه دون اقصاء. لذا فنحن نعتقد أن هناك عوامل جعلت بعض المؤرخين الغربيين يتعصبون للأصل الغربي، وإذا استطعنا كشفها، سنكون أكثر سعة من ضيق بعضهم. لأن الحق يقال،

⁶ عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني، وكالة المطبوعات ودار القيم، الكويت- بيروت، الطبعة الخامسة، 1979، ص 11.

⁷ مارتين برنال: أثينا السوداء - الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، ترجمة لطفي عبد الوهاب يحي، الجزء الأول: تلفيق بلاد الإغريق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص 54.

أن عمق وسعة بعض الفلاسفة لا يعفيهم من الوقوع في منطقة ظل تجعلهم أكثر ضيقاً من بعض الدارسين غير المتخصصين حتى.

- ما هي أهم المواقف التي شكلت المبحث التاريخي والفلسفي المعروف بإشكالية نشأة الفلسفة الإغريقية؟

- هل يمكن أن تتدخل الوضعية الحضارية الحالية في بلورة هذه الإشكالية؟ نمثل إلى تصديق هذه الفرضية على أساس أن القوة الحضارية الحاضرة تشكل المنظور إلى التاريخ البعيد. فحسب فوكو وآخرون ليس الماضي هو الذي يحدد الحاضر فقط، بل أن الحاضر هو الذي يحدد الماضي، أي وضعية الثقافة في الحاضر هي التي تعطي قيمة لتراثها بالإيجاب أو بالسلب.

- ما هو الرأي السليم تاريخياً لفك خيوط هذه الإشكالية التي أصبحت حادة بداية من النصف الثاني من القرن التاسع عشر؟

يظهر لنا، من بين العشرات من الدراسات حول هذه المشكلة، أن كتاب "مارتن برنال" Martin Bernal (1937/2013)، بعنوان "أثينا السوداء"، من أهم الدراسات التي استطاعت استيعاب المشكلة، على أساس أنه حاول تفهم وتحليل كل النماذج التي تشكلت حول مشكلة الأصل. لذا سنعمل على هدي هذا الكتاب الموسوعي، لكن من خلال تجاوزه ومقارنته مع بقية الدراسات الجادة في هذا المجال.

بالنسبة للبروفيسور "جورج سارتون"، والذي بحث في أصول العلم العالمي، فإنه يطرح سؤال كان قد طرحه مؤرخ فلسفة مرموق وهو جون بيرنيت، قائلاً: "سؤال المرحوم جون بيرنيت (1928/1863) john Burnet في كتابه Greek philosophy (ج 1 من طاليس إلى أفلاطون): إذا كان اليونانيون مدينين لأسلافهم الشرقيين هذا الدين الكبير، فكيف لم يكن تقدم اليونانيين أسرع مما كان؟ (...). الإجابة عنه بقدر المستطاع أن اليونانيين لم يتلقوا مباشرة أحسن تراث، وإنما تلقوا شذرات فقط".⁸ إن هذه الملاحظة تعلمنا النظرة الحذرة، إذ أن الأخذ لا يعني أخذ كل شيء، والإبداع لا يدل على الانطلاق من العدم المعرفي. ثم أنه بصدد دراسة موسوعة "سارتون" (سنة أجزاء ممتعة ودقيقة) يجب أن نميز بين تاريخ العلم وتاريخ الفلسفة. ونحن هنا بصدد مباحثة أصول الفلسفة. وعلى الرغم من أن القدماء لم يبلغوا مرتبة الفصل الواضح بين الفلسفي والعلمي، فمن الواجب التأكيد بأن مسار تاريخ العلم لا يتطابق مع مسار تاريخ الفلسفة، ولعل مثال أفلاطون أحسن توضيح لذلك، فهو يمثل قمة النمو الفلسفي لكنه، بالمقابل يمثل، حضيض النمو العلمي. فقد كبحه من خلال عدم الاهتمام به مثلما فعل سقراط عندما رفض العلم الطبيعي لصالح معرفة الإنسان. وعندما يعترف أرسطو بأن العلم الرياضي قد ابتدأ مع الكهنة المصريين نظراً لتفرغهم،⁹ فهذا لا يدل على أنهم امتلكوا فلسفة قبل الإغريق. إذ هناك

⁸ جورج سارتون: تاريخ العلم، الجزء الأول، الكتاب الأول: العلم القديم في العصر الذهبي لليونان - 1 الأصول الشرقية واليونانية، ترجمة لفيق من العلماء، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1976، ص 273.

⁹ Aristote : la métaphysique, traduit par Jules Barthelemy Saint - Hilaire, POKET - Brodard et Taupin, 1991, § 981 b, p 42.

توازي بين النمو الفلسفي والنمو العلمي. ونقل الإغريق علم الشرق، لا يعني اطلاقا نقلهم فلسفة الشرق. فليس هناك تلازم بين النقلين.

أولاً- النموذج القديم: أو نظرية الأصول الشرقية.

عندما نستعمل كلمة النموذج فمن أجل الإشارة إلى التصميم المصغر والمبسط لحقيقة أكثر تعقيدا وتفصيلا. لذا فإن لكل نموذج حدوده التي لا يستطيع تجاوزها. ولا داعي لتفصيل القيمة الإجرائية لمفهوم النموذج كما حددها توماس كون في كتابه "بنية الثورات العلمية 1962، إذ كشف أن كل نظرية علمية تسير وفق نموذج أعلى من ذلك العلم ذاته، بمعنى أن هناك قوى غير علمية تسير العلم، مثلما أن هناك قوى غير تاريخية تشكل المنظور إلى التاريخ.

من المسائل الثابتة تاريخيا هو وجود حضارات شرقية أسبق من الإغريق، استطاعت أن تؤسس ثقافات علمية متناسقة ومنسجمة ولها منظور كلي للوجود. وعلى الرغم من أن هذه الحضارات الشرقية لم تبتكر لفظة "فلسفة" إلا أنها مارست تفكيرا يدل على النظر المجرد من كل منفعة. ومعلوم أن النصوص الإغريقية قد ربطت الفلسفة بالتفكير العقلي الذي يستهدف الحقيقة لذاتها لا المصلحة. فقد فصل كل من أفلاطون وأرسطو في أكثر من موضع مسألة نزاهة الحكمة عن أي منفعة أو مصلحة فردية كانت أو جماعية. لأن طلب المصلحة يؤثر على حرية العقل في التحرك والاستدلال والتأسيس النظري. ومن هذه الثوابت التاريخية، أسس العديد من المؤرخين والفلاسفة موقفهم القائل بأن أصل أصول الفكر الإغريقي، مضمونا وبنويا، هو العديد من حضارات الشرق القديم، الأدنى والأقصى، إلى جانب الحضارة المصرية التي تقاسمت مع الإغريق المعتقدات والأفكار والعلوم أكثر مما نعتقد. وربما أن شهادة الإغريق ذاتهم أحسن دليل على ذلك.

والملاحظ أن هذا الموقف مؤسس على أن فرضية اللاحق يأخذ من السابق بالضرورة، وأسبقية الحضارات الشرقية على الإغريق كان كفيلا بإثبات نقلهم من الشرق. لكن يجب الانتباه إلى أن الأسبقية الزمنية أو التاريخية ليس بالدليل الذي لا يأتيه الشك، بل قد يكون دليلا لإثبات عكس الأطروحة. لأن بعض أنصار الأصل الشرقي للفلسفة، يتمسكون بالفكر الجوهري، الذي ينظر إلى الأفكار بالطريقة الجوهريّة، وهي التي شرحها باشلار، من خلال أمثلة الاعتقاد بأن العلم ظهر دفعة واحدة، وأن الدين اكتمل مباشرة وأن الفلسفة مستقلة عن بقية أنماط الفكر. في حين أن الحقيقة عكس ذلك تماما. ومثلما أن هذه الملاحظة تصلح على أنصار المنظور الشرقي، فهي أيضا توجه لأنصار المنظور الغربي. فليس القديم بالضرورة أصيل وليس الجديد مقلد أو هجين حتما. فالكفر الشرقي، ونظرا لقدمته يعتقد بأنه الراشد والأصيل، والفكر الغربي نظرا لحدثه وعقلانيته يعتقد بأنه الأقوى والأكثر فطنة. بل الأكثر من ذلك، فإن أنصار الفكر الغربي يعتقدون بطفولة الفكر الشرقي، وهذا على عكس ملاحظة الكهنة المصريين الذين تحاوروا مع صولون. "فليست علاقة الشرق بالغرب كما بين الولد الراشد، علاقة الجهل بالمعرفة، اللا فلسفة بالفلسفة، إنها أدق من ذلك بكثير (...). لا تصنع وحدة الذهن الإنساني بجمع بسيط وانتثار "اللا فلسفة" بأوامر الفلسفة الحقيقية".¹⁰ لقد وقع النموذج القديم، في

¹⁰ موريس ميرلو بونتي: تفريظ الفلسفة، ترجمة قزحيا خوري، منشورات عويدات، بيروت - باريس، الطبعة الأولى، 1983، ص

معالجته لمشكلة أصل الفلسفة في المعايير التي رسمها الإغريق للفلسفة، مما جعلهم يفعلون ويعتقدون أن ما أنجزته الحضارات الشرقية ليست فلسفة إنما هي فكر ديني أو أسطوري أو خرافي حتى. في حين أن تحديد الفاصل بين الفلسفة وغير الفلسفة ليس إلا تحديدا محليا تابعا لثقافة ما. ليست معايير التفلسف عالمية فوق الثقافات والسياسات، بل هي محلية تم عولمتها لأسباب معروفة.

إن تاصيل المعرفة بالنظر إلى القدامة يطرح أكثر من مشكلة، فلو أننا، في المنظور الشرقي، نعزز أطروحة تبعية الإغريق للحضارات السابقة. فإن هذا يجعلنا نبحث أيضا عن الحضارات القديمة على مصر وبلاد الرافدين (الميزوبوطامي). وكون أن أقدم ما نمتلكه من مصادر يعود إلى الحضارتين، لا يسمح لنا بالتأكيد على أنها الأصل والأقدم، فهذا الحكم مؤقت وقد ينهار في أي لحظة، بخاصة مع تقدم البحوث التاريخية والأثريولوجية. لذا يقول الأثريولوجي الطبيعي الأمريكي "وليام هاولز" أن "اليونان وروما تميلان الى اعتبار مصر هي أم الحضارة، ولكن أشك في أن مصر ذاتها كانت تعتمد على مصادر أقدم تشترك في ذلك مع سومر".¹¹ وعدم التوصل إلى مصادر الحضارة المصرية والسومرية لا يسمح لنا بغلق البحث نهائيا على أنهما مصدر كل علم وتأمل.

ابتدئنا بصعوبات النموذج القديم، أو ما يمكن أن نسميه نظرية الأصل الشرقي للفلسفة، لكي لا نقع في ايدولوجية الأصول الشرقية. ولكي نترك دوما هامش للنقد والتشكك. هامش عدم الاطمئنان السلبي لاحتواء حضارات الشرق على كل شيء. وبالمقابل، ليس من أجل تقوية المنظور الغربي، بل من أجل التسامح مع الحضارات الأكثر حداثة وترك لها النصيب الكاف للإبداع. إن التأكيد الدوغماتيقي على الأصول الشرقية للفلسفة، يجعل يونان وكأنها نافلة حضارية لم تفعل أي شيء ! إن الوقوع في المركزية الغربية لا يختلف في شيء عن الوقوع في المركزية الشرقية، وفي الشرق ذاته هناك العديد من المركزيات المتصارعة. يقول جاك غودي Jack Goody (2015/1919)، على الرغم من أنه هدم المركزية الغربية وكشف زيف الكثير من ادعاءاتها، في معرض قبوله بفرضيات الأطروحة الشرقية المغالية: "إذا كانت أوروبا لم ت اخترع الحب، أو الديموقراطية، أو الحرية، أو السوق الرأسمالية، مثلما سوف أجادل، فهي كذلك لم ت اخترع المركزية العرقية الأثنية كذلك".¹² أي أن الشرق ليس مصدرا للخير الحضارية فقط، بل أنه لا يقل مركزية وعرقية من باقي الأجناس اللاحقة. إن المركزية ظاهرة أنثروبولوجية لا يمكن اسقاطها عن أي من الحضارات البشرية.

تقوم أصول النموذج القديم، وتسميته دالة على ذلك، على نصوص اغريقية قديمة تعترف بالحضارة الشرقية. فلم يكن المؤرخين اليونان في القديم متعصبين للنزعة الإغريقية، بل أنهم تعاملوا بكل موضوعية مع باقي الحضارات دون تقزيم ولا تجريح مثلما سنجده لاحقا. إذ أن "هيرودوت وثوسديدس [كانا] مشككين في المركزية العرقية لليونان القديمة والإعجاب الأثيني بالذات".¹³ والحق أن الاعتراف بقوة الثقافة المغايرة نجده في تراث أقدم من هاذان المؤرخان الإغريقيان. فقد كان هوميروس، وعلى الرغم من أنه يوناني،

¹¹ وليام هاولز: ما وراء التاريخ، ترجمة أحمد أبو زيد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011، ص 461.

¹² جاك غودي: سرقة التاريخ، ترجمة محمد محمود التوبة، العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، 2010، ص 21.

¹³ جون دوكر: أصول العنف - الدين، والتاريخ، والإبادة، ترجمة علي مزهر، جامعة الكوفة ودار الرافدين، الطبعة الأولى، بيروت، 2018، ص 162.

يشيد بخصال وقيمة العدو الطروادي، بل أنه كان يضع هيكتور (الطروادي) في منزلة أخيل (الإغريقي)، وبريام (الطروادي) في نفس منزلة أجاممون قائد الجيوش الإغريقية)... الخ. وهذا يدل على عدم تشكل المركزية الإغريقية، على الأقل في مستوى الكتابات التاريخية. ولم تتم القسمة المقيّمة بين الشرق والغرب بالصورة التي نعرفها اليوم. فليس كل ما هو سلبي خافق للشرق وليس كل ما هو ايجابي ناجح للغرب. لذا نجد سن Amartya Sen يقول في كتابه the Idea of Justice, 2009 بأن "الانقسامات بين مؤيدو ومعارضو الحرية، ليست جغرافية في المقام الأول. ليس الأمر كما لو أن القيم الآسيوية، كانت كلها مناصرة لفردية الحكم، ومتشككة في أهمية الحرية، بينما القيم الأوروبية التقليدية كلها مناصرة للحرية ومناوئة لفردية الحكم (...). يُزعم أن القيم الآسيوية تعطي الأولوية للانضباط على الحرية. ليس ثمة أساس تجريبي يعتد به لتقسيم أفكار بهذه الطريقة. مثلاً أرسطو وأوغسطين مناوئون للحرية".¹⁴ ونحن يمكن أن نضيف العديد من الغربيين المناوئون للحرية التي هي شرط الإبداع العلمي والفلسفي، مثل هوبز وميكافيلي... الخ.

ولئن كان البعض يتحدث عن الأصل السياسي للفلسفة اليونانية، كما سنحلل ذلك في المحاضرة الثالثة، من خلال الربط بين الديمقراطية التي تولدت في الدولة المدينة وظهور الفلسفة. فإن جعل نظام البوليس (الدولة المدينة) خاصية إغريقية بحثة فيه إعادة نظر. "فغالبا ما ينظر إلى الديمقراطية باعتبارها جوهرها فكرة غربية، غريبة على العالم غير الغربي (...). بعض المدن المعاصرة في آسيا (في إيران وبلخ والهند) ضمت عناصر من الديمقراطية في الحكم بالمجالس البلدية في القرون التالية لازدهار الديمقراطية الأثينية".¹⁵ لذا فليس من الصواب ربط الشرق بالحكم المطلق مثلما روح هيجل لذلك. ومن المعلوم أن الديمقراطية الإغريقية، بخاصة الأثينية، لم تكن بالصورة المثالية التي نتصورها، وهيجل وغيره عارفون بذلك. إن أن الشعب لا يشمل الجميع، بل الطبقة الأكثر قوة بالملكية والعبودية. لذا فإن ظهور الفلسفة والعلم والفن عند الإغريق قد ارتبط بأكتاف العبيد، الذين وفروا الجو المناسب للطبقة العليا للبحث النظري الخالص.¹⁶ فالعبودية نظام قديم لم يستثن لا الشرق ولا الغرب. وقد قال الحكماء القدامى بأن الفراغ هو أم الفلسفة، وبهذا المبدأ فإن رجال الدين في العالم الشرقي (نساك الهند، المجوس الفارسيين، كهنة الكلدانيين، وكهنة مصر) هم أول الفلاسفة.¹⁷ وبالنسبة لهوبز مثلاً فلا فرق بين التفلسف الشرقي والتفلسف الإغريقي ما دام هناك وقت فراغ للتفكير في مسائل نظرية لا ترتبط بالمنفعة اليومية الزائلة.

يمكن أن نجد العديد من نصوص هيروdot، والتي تؤكد المصادر الشرقية الإفريقية للأبجدية الإغريقية والعديد من الديانات المختلفة التي استوحتها من المصريين والليبيين. كما أن مسقط رأس الفلسفة، وهي جزيرة أيونيا، لم تكن جزيرة منغلقة على نفسها، بل هي المدينة المفتوحة على أكثر الأجناس اختلافاً عن الإغريق الخالص. "قلو نظرنا بمعيار العرق سنلاحظ أن أيونيا المهد الأول

¹⁴ أمارتيا سن: فكرة العدالة، ترجمة مازن جندلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، 2010، ص 333.

¹⁵ أمارتيا سن: الهوية والعنف - وهم المصير الحتمي، مرجع سابق، ص 62-64.

¹⁶ جون رولز: نظرية في العدالة، ترجمة ليلي الطويل، منشورات الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق، 2011، ص 401.

¹⁷ توماس هوبز: اللفيثان - الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث - كلمة ودار الفارابي، أبو ظبي - بيروت، الطبعة الأولى، 2011، ص 632.

لنشأة الفلسفة اليونانية لم تكن منطقة صفاء عرقي، بل منطقة اختلاط. يقول هيروdot: امتزج في أيونيا ما لا يقل عن عشرة أعراق".¹⁸ ومن المعلوم أن موقع أيونيا المحاذي لآسيا الوسطى له من الدلالة ما يجعل العديد يؤكد الأثر الفارسي والشرقي بالعموم على نشأة الأفكار وامتزاجها. وبالنسبة لجان بوفريه، الذي حاور هيدجر في الفلسفة الإغريقية، فإن البلد الذي ظهرت فيه الفلسفة ومهداها، هو على ضفاف أيونيا Ionie وكل إيطاليا، قبل أن تنتقل إلى العالم اليوناني وتسكن في اتিকা Attique (المقاطعة الشرقية من شمال اليونان أين تقع أثينا) التي لم تُستقبل فيها جيدا، وظهر ذلك في عملية نفي وإبعاد أناكساغوراس من أثينا رغم صداقته مع براكليس. وبعد مدة من الزمن موت سقراط الذي اتهم بإفساد الشباب والفكر بالآلهة. هذا يعني أن الأثينيين لا يحبون الفلسفة.¹⁹ على عكس ما راج عند بعض الألمان عندما اعتبروا أثينا جمهورية للعابرة. إن ميلاد الفلسفة في آسيا الصغرى، وتواصل المدارس الكبرى، على شاكلة المظبية والفيثاغورية والهيراقليطية (نذكر أن فيثاغورس ارتحل إلى كروتونيا إيطاليا فقط، ولم يولد هناك)،²⁰ هناك في ساموس وأفازيا ومليتوس، يدل على مساهمة الفضاء الشرقي في بلورة الفكر الفلسفي. وقد لاحظ كل مؤرخي القدامة أن معظم الحكماء السبعة من آسيا الصغرى،²¹ ولهذه الملاحظة دلالاتها في سياق تأكيد أثر المجتمعات المفتوحة على إنتاج الحضارة. فانفتاح المدن اليونانية على الشرق أتاح لها إنتاج ما انتجوه من حكمة وعلم وثقافة.

الطريقة التي اتبعتها مارتن برنال لإثبات صدقية النموذج القديم، هي الطريقة الفيلولوجية القائمة على البحث عن أصل التسميات الإغريقية في اللغات الشرقية، وقد توصل إلى أن أسماء الآلهة والأماكن والوديان والمدن... الخ المتداولة في اليونان تم نقلها من السامية والفينيقية... الخ. فاسم أوروبا Europa مشتق من Erb وهي كلمة في الأوغاريتية السامية الغربية المحلية، الذي يعني الغرب.²² وبالفعل، فإن أوروبا تقع غرب آسيا. وحتى بعض الاصطلاحات الفلسفية، يضيف برنال، مأخوذة من اللغة المصرية القديمة، فمثلا كلمة نووس اليونانية جاءت من الكلمة المصرية نوو nw بمعنى يرى أو ينظر.²³ ونحن نعلم أن الأغلبية من الكلمات

¹⁸ الطيب بوعزة: في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة - نقد التمركز الأوروبي، مركز نماء للبحث والدراسات، بيروت، الطبعة الأولى، 2012، ص 161.

¹⁹ Jean Beaufret : Dialogue avec Heidegger- philosophie grecque, les éditions de minuit, Paris, 1987, P 36.

²⁰ Charles Werner: la philosophie Grecque, petite bibliothèque Payot, Paris, 1962, p 10.

²¹ جورج سارتون: تاريخ العلم، الجزء الأول، الكتاب الأول: العلم القديم في العصر الذهبي لليونان - 1 الأصول الشرقية واليونانية، مرجع سابق، ص 359.

²² مارتن برنال: أثينة السوداء - الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، الجزء الثاني - المجلد الثاني: النهاية البطولية لعصر بطولي، ترجمة عادل محمد سليم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005، ص ص 360-690. يذكر القصة التالية: الأسطورة تقول: كانت يوروبا (أخت كادموس) تلهو على شاطئ مملكة والدها أجينور Agenor في صور (في لبنان حاليا). وهناك رآها الإله زيوس، الذي أقنعها أن تعطي ظهره، بعد أن تحول إلى هيئة ثور، عندئذ حملها بعيدا إلى كريت ثم إلى الغرب. وحاول إخوة يوروبا أن يقتفي أثرها ولكن دون جدوى.

²³ مارتن برنال: أثينة السوداء - الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، ترجمة لطفي عبد الوهاب يحي، الجزء الأول: تلفيق بلاد الإغريق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص 659.

الغريبة الدالة على العمليات العقلية مستتبطة من الحسيات مثل كلمة فهم *entendement* التي ترتبط بالسمع مثلا. وحتى في اللغة العربية، فإن النظر (وهو في أصله حسي/ بصري) يدل على التفكير المجرد، ومنه أتت كلمة المناظرة أي الاشتراك في النظر. وقد استثمر برنال الشكوك التي أبداه أفلاطون في محاوره كراتيليوس بشأن غرابة كلمة صوفيا (حكمة) عن السياقات اللسانية الإغريقية المألوفة.²⁴ يقول: "كلمة صوفيا من أصل مصري SB3 بمعنى يعلم - تعليم. وإذا عرفنا أن الحرف المصري القديم بي B يقلب أحيانا في اليونانية ليصبح ف ph لأدركنا أن الأصل اللغوي للكلمة اليونانية يتطابق تماما مع التراث القديم الذي يرى أن *sophia* وافدة من مصر".²⁵ ويسوق لنا برنال العشرات من الأدلة اللغوية التي ترجع التسميات الإغريقية إلى أصول سامية، مثل الكلمة الإغريقية *qudos* التي تعني المجد الإلهي، حيث أن جذرها السامي *qds* يعني المقدس. وحتى كلمة كوسموس التي لها النقل الفلسفي والطبيعي مثل كلمة النوس أعلاه، فإن جذرها الإغريقي *kosm* حيث تم اشتقاق الـ *cosmos* التي تدل على التوزيع والترتيب والتنظيم، متطابقة مع الحذر السامي *qsm* الذي يعني أيضا يقسم وينظم ويقرر.²⁶ والفرضية الألسنية الثابتة تقول بأن تطابق كلمتين لهما نفس البنية النحوية ونفس المعنى يدل على الانتقال اللغوي من هذا السياق إلى ذلك. بالنسبة لأسماء المدن والجزر، فقد استشهد برنال بالعديد من الأمثلة من عند الكتاب الإغريق ذاتهم. إذ يقول باروزانياس وهو رحالة وجغرافي إغريقي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد أن "اسم مدينة ميغارا *Megara* يعني الكهف أو الغرفة تحت الأرض. وفي هذا الصدد فإن كلمة سامية غريبة بهذا المعنى ذاته تظهر في اسم المكان الأوجاريتي "مغرت" *Mgrrt* والاسم الذي ورد في الكتاب المقدس "مئارة" *Mearah*".²⁷ وربما أن برنال لا يعلم بأن "مغارة" في العربية تدل على نفس المعنى. أما أسماء الآلهة الإغريقية، فقد تكفل هيرودوت بتأكيد علاقتها بالأسماء المصرية عندما قال بأن الإغريق تلقفت من مصر كل الأسماء المقدسة *les noms de divinités*.²⁸

الحجة الأخرى التي اعتمدها أصحاب الأصل الشرقي للفلسفة، هي السيرة العلمية لكبار الفلاسفة الإغريق. حيث أنها تكشف عن زيارات للبدان الآسيوية والإفريقية، مما يقوي فرضية نقلهم لمعاف الشرق إلى بلاد اليونان. ولو أننا نشعر بضرورة التفرقة بين الزيارة القصيرة والزيارة الطويلة التي قد تساهم في تكوين الفيلسوف، إلا أن أنصار النموذج القديم لا تهمهم هذه التفرقة. لذا نقول بأن الزيارة القصيرة قد لا تكون دليلا على التأثير بالروح الفكري الشرقي، كما أن سن الزيارة بالنسبة للفيلسوف يلعب دورا في ذلك، فالزيارة في مرحلة الشباب والتي تدوم عدة سنوات، قد تكون فعالة في إثبات التأثير، أو الزيارة في القصيرة في الشيخوخة، فهي فرضية ضعيفة لإثبات النقل.

²⁴ Platon: *Cratyle*, traduit E. Champry, édition Flammarion, Paris, 1967, § 411d-412 e, p 433.

²⁵ الطيب بوعزة: في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة - نقد التمركز الأوروبي، مرجع سابق، ص 41.

²⁶ مارتن برنال: أثينة السوداء - الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، ترجمة لطفي عبد الوهاب يحي، الجزء الأول: تلفيق بلاد الإغريق، مرجع سابق، ص 152.

²⁷ مارتن برنال: أثينة السوداء - الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، ترجمة لطفي عبد الوهاب يحي، الجزء الأول: تلفيق بلاد الإغريق، مرجع سابق، ص 140.

²⁸ Hérodote: *L'Enquête- livres 1 à 4*, traduit par Andrée Barguet, édition Gallimard, Paris, 1964, livre II, § 50, p 186.

استعمل هذه الحجة مناصري الديانة اليهودية، وافترضوا أن كل الفلسفة الإغريقية منقولة من الكتاب المقدس العبري. وقد أورد يوسيفوس الأورشليمي هذا القول في كتابه التاريخي، لكنه قول لم يتأسس على تفاصيل مقنعة، بل كرر قولاً خطابياً لا أكثر في سياق دفاعه عن اليهود ضد الأغارقة الذين اختالوا في مركزيتهم ضد الشعوب الأخرى.²⁹ أول فيلسوف اتهم بنقل العقائد التوحيدية من اليهود هو أفلاطون. "قالشكوك التي سوف تتناقل ردحا طويلا على الفيلسوف العظيم أفلاطون: ترى كيف يكون وثني قد استطاع أن يجد بذاته وحسب عقيدة سامية بهذا المقدار؟ أليس من المحتمل أنه استقاها من النبي موسى" ³⁰؟ فروحانية أفلاطون لا تفهم في السياقات الإغريقية الوثنية التي تجسم الآلهة وتصفها بالصفات الأنثروبومورفية المهينة. وتحقيق نقلة بهذا الحجم يفترض تدخل عقائد غير إغريقية. وفي نهاية العصر الأسكندري، ظهرت وجهة النظر القائلة بأن الفلسفة الإغريقية هي ترجمة للديانة الموسوية، وقال نيميبيوس (ق 2 م) بأن أفلاطون هو موسى تحدث بالإغريقية.³¹ لكننا نعتقد بأن مثل هذه الملاحظة يمكن أن تفهم بالنظر إلى الأجداد المفهوميين لأفلاطون، فمن المعلوم بأنه سار في خط التوجه الإلياتي ضداً على هيراقليطس، والدرس التوحيدي/ التنزيهي الذي قدمه الشاعر كزينوفان كفيل بفهم الأصول الأفلاطونية للمثالية الدينية. وسنفضل هذا في المحاضرة المخصصة لدراسة مشكلات المدرسة الإلياتية. وإلى جانب الفصل الذي خصصه المؤرخ "يوسيفوس بن كرون" تحت عنوان "ذكر ما أمر به بطليموس الملك اليوناني من نقل كتب الشريعة والأنبياء من العبراني إلى اليوناني ليفهم ذلك قومه بلغتهم"، نجد أيضاً موقف فيلوس الإسكندري الذي طور أطروحة نسخ الإغريق لكتب العهد القديم. ففي رأيه أن الفكر اليوناني هو تفسر مجازي لليهودية.³² والظاهر أننا نجد تقاطعات لا يمكن اغفالها بين الفلاسفة الإغريق على شاكلة أفلاطون وبين مفاهيم الديانات المقدسة. هذا ما جعل بعض المسيحيين، يقولون القولة المشهورة بأن أفلاطون مهد أحسن تمهيد للمسيحية كعهد جديد،³³ أو أن المسيحية هي أفلاطونية الشعب كما كان نيتشه يكرر ذلك، وهذا التمهيد لا ينفصل عن التأثير اليهودية باعتبارها العهد القديم. كما يمكن ملاحظة اندهاش "أوغسطين من التماثل بين كوسمولوجيا الطيماوس والعهد القديم (التكوين). فافتراض أن أفلاطون قد سبق له أن اطلع على الكتابات اليهودية".³⁴ ولو أنه افتراض فقط، فهو مؤسس على واقعة زيارة أفلاطون لمصر، وهي الزيارة التي أثبتتها سير الفلاسفة. ونجد في مؤلف ديوجين اللائريسي، وإن كانت تعوزه الدقة والمصادقية، ذكر للاتصال بين الفلاسفة الإغريق والعالم الشرقي، على النحو التالي: حمل فيثاغورث معه ثلاثة كؤوس مصنوعة من الفضة، إلى مصر كهدية ليقدمها إلى كل كاهن على حدة (...). أتقن فيثاغورث تعلم لغة المصريين كما يخبرنا أنطيفون. وزار أيضاً بلاد الكلدانيين والمجوس magoi. كما ولج داخل المعابد المصرية،

²⁹ يوسيفوس اليهودي: تاريخ اليهود، اعداد الراهب القمص أنطونيوس الأنطوني، شركة الطباعة المصرية، 2006، 29.

³⁰ جورج مينوا: الكنيسة والعلم - تاريخ الصراع بين العقل الديني والعقل العلمي، الجزء الأول، ترجمة موريس جلال، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 2005، ص 55.

³¹ Charles Werner: la philosophie Grecque, Op.cit, p 7.

³² جورج مينوا: الكنيسة والعلم - تاريخ الصراع بين العقل الديني والعقل العلمي، الجزء الأول، مرجع سابق، ص 90.

³³ Blaise Pascal: Pensées, éditions de la seine, 2005, § 219-612, p 91.

³⁴ جورج مينوا: الكنيسة والعلم - تاريخ الصراع بين العقل الديني والعقل العلمي، الجزء الأول، مرجع سابق، ص 157.

وتعلم من كهنتها الأسرار المقدسة الخاصة بالآلهة التي كان محرما التقوه بها".³⁵ ما يهمننا من هذه الفقرة، على افتراض صدقها، هو مقدار النقول الفلسفية التي نقلها فيثاغورث من هؤلاء الشرقيين، فليس الزيارة دالة النقل بالضرورة.

طالما كان فيثاغورث الوساطة التي تصل أفلاطون بالشرق، على أساس أن أفلاطون قد تأثر كثيرا بتوجه فيثاغورث، الذي بدوره نقل ما يفترض أنه نقله من الشرق. وحسب اللائسي دائما فإن "أفلاطون قد أرسل مبلغ 100 مينا كي يشتري الكتب المشهورة لفيثاغورث".³⁶ وهناك من يتهم أفلاطون بالسرقفة العلمية من فيثاغورث، وبعلاقة التعدي، يكون قد سرق هو ذاته من الشرق. "لقد كتب أفلاطون رسالة إلى ديون diôn يطلب منه فيها أن يشتري لحسابه المؤلفات الفيثاغورية التي كانت في حوزة فيلولاؤوس التلميذ الفيثاغوري".³⁷ وهذا ما يثبت صحة نظرية الهجين الأفلاطوني كما صاغها نيتشه، حيث أنه أثبت المصادر المختلفة لنظرية المثل.³⁸ وديوجين يتحدث عن المضمون الفيثاغوري لمحاورة طيماوس وهي المحاوراة الأساسية التي ترد فيها آراء الخلق ونشوء الكون وفقا للأشكال والأعداد... الخ. ويواصل ديوجين ذكر قائمة الفلاسفة الذين تفاعلوا مع الشرق، مثل تلميذ ديمقريطس على يد معلمين مجوس magoi أو كلدانيين chaldaioi في اللاهوت والفلك. كما أنه سافر إلى مصر وبلاد فارس Persis وخالف حكماء الهند العراة Gymnosogpistai.³⁹ لذا نجد من يدافع على أطروحة الأصول الهندية لفلسفة الذرة. بل هناك من تحدث عن الأصل الفينيقي للمذهب الذي.⁴⁰ كما نجد إشارة إلى التقاء بيرون المتشكك بالحكماء العراة وبالمجوس في الهند.⁴¹ مما يعزز فرضية تأثره بهذه الأفكار التي تحمل تصورات حول الكون. لكن دائما ما نقول أن هذه اللقاءات المفترضة والسفريات العلمية لا تجعلنا نؤمن بأن هؤلاء الفلاسفة قد أخذوا نظريات كاملة وناجزة. فلو فعل الإغريق ذلك، حسب ملاحظة الفيلولوجي الإيكوسي جون برنيه، فلماذا لم تتطور فلسفتهم بصورة مفاجئة وتنتهي بسرعة. إن أهم شيء هو معرفة طبيعة التأثير الذي حدث بين الإغريق وغيرهم وليس مجرد تأكيد تأثر اللاحق بالسابق. نحن نتحدث فقط عن تأثر الحكمة الشرقية على العقل الإغريقي، لكننا لم نعرف تفاصيل هذا التأثير وطبيعته وكميته.⁴² هناك نمو متعثر لفلسفة اليونان، وتشكل معقد لمذاهبهم وأفكارهم، في انسجام تام مع خصوصياتهم الفلسفية والسياسية والدينية، مما يدل على وجود مجهود مستمر وتعديل متواتر للفكر والنظر، وليس مجرد نقل ووضع وترجمة وتركيب لخبرات

³⁵ ديوجينيس اللائسي: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الثالث، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014، كتاب 8، فقرة 2، 4، ص 10-11.

³⁶ المرجع نفسه، كتاب 8، فقرة 15، ص 21-22.

³⁷ المرجع نفسه، كتاب 8، فقرة 84، ص 87.

³⁸ فريدريك نيتشه: الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، ترجمة سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، 1982، فقرة 2، ص 43.

³⁹ ديوجينيس اللائسي: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الثالث، مرجع سابق، كتاب 9، فقرة 34-35، ص 135.

⁴⁰ جورج سارتون: تاريخ العلم، الجزء الثاني، الكتاب الأول: العلم القديم في العصر الذهبي لليونان 2- القرن الخامس، ترجمة ليف من العلماء، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1970، ص 61.

⁴¹ ديوجينيس اللائسي: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الثالث، مرجع سابق، كتاب 9، فقرة 61، ص 171.

⁴² Jean Burnet: L'aurore de la philosophie Grecque, éditons Payot, Paris, 1919, 17.

الفكر الشرقي السابق والمعاصر لهم. ثم أن ابتداء الفلسفة الإغريقية بالمسائل الطبيعية لا اللاهوتية أو الدينية يدل على حدث جديد،⁴³ بمعزل عن المواضيع التي كانت سائدة في السياقات الأخرى.

وفي قضية مصادر فكر أفلاطون، ويغض النظر عن الأطروحة اليهودية، نجد من يؤصل "أقصوصة الكهف" في الثقافات الشرقية القاصية. يتحدث "محمد الحداد" وهو من الحدائين العرب الذين اهتموا بمشكلة النهضة العربية والمشكلة الدينية، عن "أمثلة الكهف الموجودة في التراث الصيني، على الرغم من عدم اطلاع أفلاطون ولا أرسطو عن هذا التقليد".⁴⁴ لكن يمكن أن نلاحظ مسألة في غاية الأهمية، وهي أن أسبقية فكرة ما، لا يدل على أنها هي الأصل لنفس الفكرة المشابهة لها لاحقاً. فقد نجد تطابق بعض الاكتشافات في أزمة مختلفة وأمكنة متباينة، على الرغم من عدم وجود أي علاقة بينهما. مما يمكن أن نسميه بالإبداعات العالمية المنفصلة التي لا يثبت فيها أي علاقة تأثير أو تأثر.

بالنسبة لبعض مؤرخي الفلسفة الألمان، أمثال Roth روث و Gladich غلاديش، فإن علاقة الفلسفة الإغريقية بالحضارة المصرية أمر موثوق في صدقيته.⁴⁵ وعلى الرغم من أن الفكر المصري كان فكراً دينياً في حقيقته، فإن الحقيقة الجديرة بالملاحظة هي أن تأثير المصريين على الإغريق كان من الناحية الدينية، وقد تكفل هيرودوت بإثبات تلك العلاقة القوية بين التسميات المقدسة المصرية والإغريقية، ولئن كنا نعلم بأن الفلسفة الإغريقية كانت مسبقة بالمرحلة الدينية، فإن تأثير المصريين في الإغريق، وفق هذا المخطط، كان تأثيراً غير مباشر. أي ليس تأثير فلسفي محض، بل هو تأثير في الفلسفة عن طريق الدين.⁴⁶ ومن المؤكد أن الفلسفة الطبيعية، التي هي باكورة الفلسفة الإغريقية لم تنفصل كلية عن التصور الديني للعالم. وهذا ما سناقشه في محاضرة الميثوس واللوغوس.

يمكن الحديث عن الفهم المعتدل والمعقول لتأثر الشرق في اليونان، فالتأثير لا يعني النقل المباشر والأخذ السلبي. بل أن هناك ما يمكن تسميته التأثير بالغير من خلاف فهم الاختلاف عنه ووعيه في فهم الذات. فالانفتاح على الغير، وهو ما حدث لليونان بالنظر إلى طبيعته البحرية والتجارية، في جزر أيونيا بالضبط، هو الذي أتاح لهم التعرف على الشعوب الأخرى سواء من حيث تاريخهم ودياناتهم ومعارفهم... الخ. ومن خلال هذا التفاعل، ينشأ تأمل في أنظمة الثقافة والمعرفة.⁴⁷ وما خروج الكثير من المؤرخين الإغريق، كما أسلفنا، عن مركزيتهم العرقية والمدينية والانتماء الضيق، إلا علامة على استيعابهم الفكر المختلف من خلال المقابلة مع الغير.

ثانياً - النموذج الآري المتطرف.

⁴³ Albert Leclère: la philosophie Grecque avant Socrate, Librairie Bloud, Paris, 1908, p13.

⁴⁴ محمد الحداد: مقدمة كتاب بيبير سيزار بوري وسافيريو مارشينيولي: أخلاق كونية لثقافات متعددة، ترجمة أحمد عدوس، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص 6.

⁴⁵ Charles Werner: la philosophie Grecque, Op.cit, p 7.

⁴⁶ Ibid, p 8.

⁴⁷ إدموند هوسرل: أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية، ترجمة إسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، للطبعة الأولى، 2008، ص 597.

يتحدث مارتن برنال على هذا المنظور من منطق عرقي خالص، وهو المنظور الذي أصبح مألوفاً في البحوث الأكاديمية، إما من حيث هو حقيقة مؤكدة أو خرافة عرقية. وهو منظور جديد مقارنة بالنموذج القديم. لكن يمكن لنا القول بأن المركزية الإغريقية كانت موجودة حتى في زمن نضج الفلسفة مع أرسطو وأبيقور... الخ. لذا فإن أصول النظرية التي تقول بالمعجزة الإغريقية قديمة قدم الوعي الفلسفي ذاته. أو كما قال "ليوتار" أن مشكل أصل الفلسفة نشأ مع الفلسفة.⁴⁸ ولو أن الفكر الغربي في عصر الحداثة الأوروبية ممثلاً في التيار الرومانسي الألماني خاصة (شوبنهاور وجوته...) قد أعاد اكتشاف الشرق الساحر الخلاب، فإن هناك حركة مضادة للتصوير،⁴⁹ ونقد عقلاني قوي للإيمان "بفكرة الضوء الآتي من الشرق، والهجوم على "السراب الشرقي" من طرف "سالمون رايناخ" salomon Reinach مثلاً ضد أولئك الذين يبحثون عن الأصول الآسيوية للحضارة الأوروبية.⁵⁰ لكن في الحركة الرومانتيكية ذاتها نجد من هاجم فرضية الأصول الشرقية للفلسفة الإغريقية على أساس أن الإبداع الحضاري يتطلب النقاء والصفاء، فلا يعقل، حسب اعتقاد البعض، أن تنتج الهجانة الثقافية والفكرية عظمة مثل عظمة الموروث الإغريقي. فهذه النظرة قائمة على الفرضية التالية: "تكون الحضارة خلقة عندما تكون "تقية نقاء عنصرياً" وهكذا أصبح من الأمور غير المحتملة في نظر الرومانسيين أن يرجع تكوين بلاد الإغريق إلى اختلاط بين أبناء البلاد من الأوربيين وبين عناصر غازية من المستوطنين الأفارقة والساميين".⁵¹ وهذه النظرة نجدها منتشرة عند بعض علماء الدين في السياقات الإسلامية حيث يعتقدون بأنه ليس من اللائق أن يحتوي القرآن الكريم على مفردات غير عربية، فالنقاء اللساني دالة على مصدره الإلهي، وكأن الهجانة اللسانية انتقاص من الأصالة المفترضة. في حين أن هناك من الحداثيين العرب من يثبت وجود ألفاظ أعجمية في القرآن. إذن فنظرة النقاء نموذجية في كل السياقات الفكرية سواء كانت دينية أو تاريخية أو فلسفية.

بالنسبة للمركزية الإغريقية التي سبقت المركزية الأوروبية المعاصرة، يمكن لنا أن نجد العديد من الكتابات التي لم تستطع التحرر من عقدة الأفضلية الإغريقية المقابلة للبرابرة. فكل من لا يتحدث الإغريقية فهو أجنبي لا يفهم كلامه، وبالتالي فهو يمثل الأجنبي والغريب والشاذ والغامض... الخ. إذ نجد أرسطو بنظريته حول الكيف الطبيعية يركز كل فضائل البشر الممكنة في الإغريق، وبالتالي فأصحاب المناطق الأخرى، المناطق الأقل اعتدالاً، ناقصون بالضرورة ووفق الحتمية الطبيعية. استطاع الإغريق الجمع بين فضيلتي الشجاعة والحكمة، وهو أمر نادر الحدوث، مما يجعلهم أحسن الأجناس.⁵² هل يمكن أن نصف تصنيف أرسطو بالعرقي

⁴⁸ جان فرانسوا ليوتار: لماذا نتفلسف؟ ترجمة يوسف السهيلي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2017، ص 99.

⁴⁹ مارتن برنال: أثينا السوداء - الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، ترجمة محمد حمدي إبراهيم وأبو اليسر فرح وآخرون، الجزء الثاني، المجلد الأول: الدليل الأثري والوثائقي، مرجع سابق، ص 264.

⁵⁰ المرجع نفسه، ص 152-153.

⁵¹ مارتن برنال: أثينا السوداء - الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، الجزء الأول: تليفق بلاد الإغريق، مرجع سابق، ص 112.

⁵² Aristote: la politique, traduit charles Million, librairie quai des augustins, Paris, 1803.

أو المركزية الإثنية؟ الحقيقة أنه لم يتحدث عن صفات خاصة بالإغريق من حيث هم عرق بقدر ما تحدث عن أفضلية الإقليم الذين خلقوا فيه، مما يجعله أبعد من المركزية العرقية، كما أنه اعترف بفضائل المناطق الأخرى. إذن فإن ابتداء الفلسفة كان عند الإغريق حصراً، وبالتالي فأول فيلسوف على الإطلاق هو طاليس.⁵³ إن اعتراف أرسطو ببداية العلم الرياضي عند المصريين، لم يستتبعه الاعتراف بالبدائية الفلسفية. إن ارتباط الذكاء البشري بالأرض، وهي الأطروحة التي طورها بعد قرون العديد من الفلاسفة مثل مونتيسكيو، لا يمكن تعميمها ولا يمكن تقديم تفاصيل مقنعة فيها، وبالنسبة لليوسان فيبر Lucien Febvre الذي درس المسألة في كتابه *La terre et l'évolution humaine*، فإن مونتيسكيو القائل "أن جذب الأرض في أتيكا (أين توجد أثينا) أنشأ حكومة شعبية وخصبها في لاكيديمون (أي اسبارطة) أنشأ حكومة أرستقراطية".⁵⁴ قد تطرح مشكلة كبيرة. فمقارنة بأرسطو، تجعلنا نقر بأن ليس هناك فرق بين كل الإغريق، لكن هذه الملاحظة الأخيرة تمايز بين الإغريق ذاتهم. على أساس أن جغرافيا الإغريق ليست متجانسة مثلما نعتقد، فسهول إسبرطة الواقعة في شبه جزيرة البلوبونيز الجنوبية أكثر خصوبة من أرض أثينا الواقعية في أتيكا الشمالية. واختلاف أنظمة الحكم، سيؤثر بالضرورة على نمط العقلانية وأنواع العلوم التي ستظهر وتتطور. وهذا معروف جيداً عند المقارنة، فإسبرطة لم تتجب إلا القليل من الأسماء العلمية والفلسفية.

وبعد أرسطو، نجد أبيقور الذي اعتقد، وفق ما كتبه لنا كليمنت الإسكندري، أن التفلسف مقصور على الإغريق عندما قال أن "اليونان كانوا وحدهم القادرين على التفلسف".⁵⁵ لكنه لم يظهر الأسباب وراء ذلك. وفي رسائله المتوفرة اليوم، لا نجد مثل هذا القول. بل أنه كان مهموماً بالمشكلات الإنسانية بلا تمييز. كل ما نجد هو ربطه التفلسف بالسعادة في الرسالة إلى مينيسي.⁵⁶ لعل ما كان متاحاً لكليمنت في زمانه غير متاح لنا اليوم! ولعل التفسير المقبول لموجه كراهية الإغريق للبرابرة، على افتراض أن أبيقور مثلاً كان كارهاً للأجانب، هو التفسير السياسي والعسكري الذي قدمه برنال عندما قال: "منذ 'الحروب الفارسية' في ق 5 ق م والفترة التالية لها (بعد انتصار الإغريق) نلمس بين أغلب الإغريق درجات متفاوتة من كراهيتهم 'للبرابرة' (...)" وفي مثل هذا المناخ فإن

أو الترجمة العربية: أرسطوطاليس: في السياسة، ترجمة أوغسطينس بريارة البولسي، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، الطبعة الثانية، 1980، ب 1327 - 20 . 25 . 30 ، ص 371.

⁵³ Aristote : la métaphysique, Op.cit, Livre A, § A983 b, p 49.

⁵⁴ لوسيان فيبر: الأرض والتطور البشري، الجزء الأول، ترجمة محمد السيد غلاب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015، ص 132.

⁵⁵ مارتن برنال: أثينة السوداء - الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، الجزء الأول: تليفق بلاد الإغريق، مرجع سابق، ص 360. ورد القول أيضاً عند:

سيمون فان دين بيرغ Simon van den Bergh ترجمته باقتباس لأبيقور Epicurus يقول فيه: "اليونان فقط هم الذين يتفلسفون. راجع: ديمتري غوتاس: دراسة الفلسفة العربية في القرن العشرين: مقالة في التأريخ للفلسفة العربية، ترجمة يوسف مدواري، مجلة التفاهم، العدد 47، شتاء 2015، مسقط، ص 436.

⁵⁶ أبيقور: الرسائل والحكم، ترجمة جلال الدين سعيد، الدار العربية للكتاب، فقرة 122، ص 203.

أقل ما يمكن أن يتوقعه المرء من الكتاب الإغريقي هو أن يقللوا من شأن الحكايات التراثية التي تشير إلى أن الإغريق مدينون ثقافيا للشرق الأدنى".⁵⁷ ففي الكتابة التاريخية مثلا نجد ظاهرة اغفال ثوكديدس هذه الحكايات التراثية. على الرغم من ذلك، فهناك استثناءات نجدها في كتب الفلاسفة مثل أفلاطون الذي تحدث عن تجربة صولون أمام كهنة مصر الكبار الذين اعتبروا الإغريق أطفال من الناحية التاريخية والعلمية والفكرية،⁵⁸ وأرسطو الذي اعترف بأسيقية العلم الرياضي المصري... الخ.

في القرن الثالث للميلاد، نجد الوثيقة التي خلفها لنا ديوجين اللارتسي تحت عنوان حياة مشاهير الفلاسفة ومذاهبهم. يتحدث في فاتحة هذا الكتاب الضخم، عن أصل الفلسفة. يفتح دراسته: هناك من يقول بأن بداية الفلسفة إنما وجدت بين البرابرة (الأجانب)، ويذهب هذا الفريق أن الفرس كان لديهم "المجوس" كما كان لدى البابليين والآشوريين والكلدانيين، كما كان نساك الهنود أو الحكماء العراة بين الهنود *cymnosophistai*.⁵⁹ لكن الملاحظ أن ديوجين ليس واضحا تمام الوضوح في موقفه، فهو لم يتبن الأطروحة السابقة، إنما أشار فقط إلى أن "هناك من يقول". وهذا لا يعني بالضرورة أنه من القائلين بالأصل الشرقي للفلسفة. وأحسن دليل هو أنه لم يكلف نفسه عناء البرهنة على صحة رأي القائلين بهذا الموقف، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن ديوجين في الفقرة الثالثة يقول: "لقد غاب عن نظر هؤلاء المؤلفين أن الإنجازات التي نسبوها إلى البرابرة (الأجانب) ترجع إلى الإغريق الذين بدأ بهم الجنس البشري ذاته لا الفلسفة وحدها".⁶⁰ فرغم أن الكثير من المفكرين يجعلون ديوجين اللارتسي في موقف مناقض لموقف أرسطو أمثال إميل برييه،⁶¹ وعبد الرحمن بدوي،⁶² وآخرون. إلا أن تفحص ما كتبه ديوجين ذاته يكشف أنه لم يتبن الرأي القائل بالأصل الشرقي للفلسفة فحسب، إنما هاجمه ورفضه. لذا فهو لا يعارض أرسطو، بقدر ما يناصر أطروحته، بل أكثر مما فعل أرسطو ذاته، بحيث لا يجعل اليونان هم مبدعي الفلسفة فقط، إنما هم في نظره أصل الجنس البشري بأكمله. لئن كان أرسطو قد ربط عبقرية الإغريق

⁵⁷ مارتين برنال: أثينة السوداء - الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، الجزء الأول: تليفيق بلاد الإغريق، مرجع سابق، ص 210.

⁵⁸ Platon: *Timée* (Sophiste- Politique- Philèbe- Critias), traduit par Emile Chambry, édition Flammarion, Paris, 1969, § 21d-22d, p 405.

أيضا:

جاك ديريدا: صيدلية أفلاطون، ترجمة كاظم جهاد، دار الجنوب للنشر، تونس، 1998، ص 50.

⁵⁹ ديوجينيس اللارتسي: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الأول، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2006، استهلال، فقرة 1، ص 29.

⁶⁰ المرجع نفسه، فقرة 3، ص 31.

⁶¹ Emile Bréhier : *histoire de la philosophie*, tome I, Antiquité et moyen age, presses universitaire de France, Paris, 2^e édition, 1983, p 2- 3.

⁶² عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1984، ص 411.

بالأرض، فإن ديوجين قد جعلها مطلقة. وفي الفقرة الخامسة من نفس الكتاب، يدحض كذلك المدافعين عن نشأة الفلسفة من أصول أجنبية عن اليونان، رغم ما لهم من حجج.⁶³ وهنا يفترض طرح سؤال حول هذا الالتباس في تصنيف موقف ديوجين اللايرسي من طرف أساتذة مختصين في تاريخ الفلسفة؟ في النهاية، لا يجب حمل مواقف ديوجين على محمل العمق الفلسفي المسؤول، لأنه من الدوكسوغرافيين (مُجمع آراء) الذين لا يوثق في تقريراتهم.

وفي منتصف القرن الحادي عشر، نجد أحد أبناء حضارة الشرق ممن كتب على الهند، وهو البيروني المتوفي سنة 1048، يعترف بالفارق بين بنية الفكر الهندي وبنية الفكر الإغريقي. فكأنه الشرقي الذي مارس الإستشراق، يقول في كتابه الأشهر مبينا تميز الإغريق بالفلسفة عن الهنود: "إن اليونانيين أيام الجاهلية قبل ظهور النصرانية كانوا على مثل ما عليه الهند من العقيدة، خاصهم في النظر قريب من خاصهم في النظر قريب من خاصهم وعامهم في عبادة الأصنام كعامهم (...). لكن اليونانيون فازوا بالفلسفة الذين كانوا في ناحيتهم حتى نقحوا لهم الأصول الخاصة دون العامة لأن قصارى الخواص اتباع البحث والنظر وقصارى العوام التهور واللجاج إذا خلوا عن الخوف والرغبة، يدل على ذلك سقراط لما خالف في عبادة الأوثان عامة قومه وانحرف عن تسمية الكواكب آلهة في لفظة كيف أطبق قضاة أهل أثينية الأحد عشر على الفتيا بقتله دون الثاني عشر حتى قضى نحبه غير راجع عن الحق. ولم يكن للهند أمثالهم ممن يهذب العلوم فلا تكاد تجد لذلك لهم خاص كلام إلا في غاية الاضطراب وسوء النظام ومشويا في آخره خرافات العوام من تكثير العدد وتمديد المدد ومن موضوعات النحلة التي يستقطع أهلها فيها المخالفة، ولأجله يستولي التقليد عليهم".⁶⁴ وهذا ما لاحظته العديد من مؤرخي الفلسفة الإغريقية، حيث أن للشرق فكر ديني أسطوري بينما للإغريق فكر عقلائي. فالكفر الشرقي بما في ذلك الهندي، قدم تفسيرات أسطورية عندما حاول فهم الكون، كما أنه فكر جمعي، لم ينفصل عن المحسوس. أما عند الإغريق، فقد ظهرت لأول مرة شخصيات كبيرة ومستقلة قطعت مع الطريقة التقليدية. وتم تحويل النحل الدينية والجمعيات اللاهوتية إلى مدارس كرسست نفسها للبحث الخالص عن الحقيقة.⁶⁵

بالنسبة لهيجل (توفي 1831)، الذي قدم تأريخ فلسفي للفلسفة، فإنه يستبعد الشرق كلية من دائرة الفلسفة، على أساس أنه لم يعرف الوعي الحقيقي، ووعي الحرية. وكل المحاولات التي ترمي إلى اثبات صلة الإغريق بالشرق لا يمكن أن تستقيم مع نمو الروح العالمي نحو الحرية. يقول مبينا السبب: "هناك أيضا خرافة شائعة في كل مكان تقول إن فيثاغورس، مثلا قد ذهب للبحث عن فلسفته في الهند ومصر، ذلك مجد قديم لتلك الشعوب، مجد الحكمة المفهومة على أنها تتضمن فلسفة أيضا (...). فإذا كانت الديانة المسيحية والفلسفة تعتبران في العالم المسيحي منفصلتين فإن الأمر خلاف ذلك في التاريخ الشرقي القديم حيث اعتبرت الديانة والفلسفة لا تقبلان الفصل".⁶⁶ ولو أن مكانة هيجل في تاريخ الفلسفة لا تقبل النقاش، إلا أن فكرته عن انفصال الدين الإغريقي عن

⁶³ ديوجينيس اللايرتي: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الأول، مرجع سابق، 32-33.

⁶⁴ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، 1958، ص 18-19.

⁶⁵ Charles Werner: la philosophie Grecque, Op.cit, p 8.

⁶⁶ هيجل : محاضرات في تاريخ الفلسفة (مقدمة حول منظومة الفلسفة و تاريخها)، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1996، ص 48.

فلسفته، فكرة ضيقة لا يمكن تصديقها بسهولة. حتى أن المؤرخ الفرنسي المقتر، فوستيل دي كولانج Fustel de Coulanges ، قد فسر كل صغيرة وكبيرة ، في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية، تفسيراً دينياً خالصاً، وأكبر الفلاسفة مثل فلسفة أفلاطون لم تتفصل عن تأثير المبادئ الدينية القديمة المرتبطة بعبادة الموقد الأساسية.⁶⁷ فكيف يتسنى لنا أن نقل تشخيص هيجل التبسيطي ؟ بل أنه ذهب إلى الرد على ما ورد في محاوره طيماوس لأفلاطون على لسان الكهنة المصريين قائلًا: إذا كان يروى أن كاهنا مصريا كان يقول إن اليونانيين سيظلون إلى الأبد أطفالاً، فإننا نستطيع أن نقول، على العكس، أن المصريين كانوا صبياناً ممثلين بطاقة خلقة، لا يحتاجون إلى شيء سوى الفهم الواضح لأنفسهم في صورة مثالية لكي يصبحوا شباباً".⁶⁸ وعلى الرغم من الخلاف الحاد بين فلسفة هيجل وفلسفة نيتشه اللاحقة، إلا أنهما اتفقا على أن الشرق لم يصل في قمة نموه إلى الفلسفة الحقة. كل ما أنتجه هو الدين. وبالتالي فإن المنظور الذي نجده عند الشرقيين أو الغربيين، والذي يرجع مجهودات الإغريق إلى الحضارات الشرقية السابقة، مجرد مقارنات عبثية لا يمكن أن تؤكد شيئاً ذي بال: "لا شك أنه تم السعي لإظهار مدى تعلم الإغريق واكتشافهم أشياء عند جيرانهم الشرقيين، ومدى تنوع اقتباسهم عنهم، وقد برز بذلك مشهد طريف حين تمت مقارنة المعلمين الشرقيين بتلاميذهم الإغريق، ومقارنة زرادشت بهيراقليطس، والهندوس بالإيليين، والمصريين بأبناذوقليس، وتوصلت تلك المقارنة حتى إلى رد أنكساغوراس إلى اليهود وفيثاغورس إلى الصينيين (...). إن محصلة هذه المقارنة كانت ضحلة".⁶⁹ وتبرير نيتشه لا يختلف عن تبريرات السابقين عليه واللاحقين أيضاً، على اعتبار أن الفكر الشرقي ديني في حين أن الفكر الإغريقي فلسفي وعقلي. يقول ممبزا بين الشرق والغرب: "إن لدى الشعب الإغريقي حكماء، في حين أن لدى شعوب أخرى قديسين".⁷⁰ هذا هو المربط الوحيد الذي فسر به أصحاب النظرية

ويحدد هيجل الطابع الغربي (الألماني) للفلسفة في زمانه قائلًا: "إن الحاجة إلى الفلسفة تتبعث حين تزول القدرة على التوحيد وتمحي من حياة البشر، حين تكون المتقابلات قد فقدت رباطها الحي وتفاعلها (...). فإذا جاء الانفصام على شاكلة التفكير المترسخ كعالم من الماهية المفكرة المفتكرة ضد عالم من الحقيق، فإنما يقع في الشمال الغربي". نص مأخوذ عن: هيجل: في الفرق بين نسق فيشته ونسق شيلنج في الفلسفة (بالنظر إلى مساهمات راينهولد في رسم لحال الفلسفة في بداية القرن التاسع عشر، الكراس الأول)، ترجمة ناجلي العونلي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص 127 - 128.

⁶⁷ فوستيل دي كولانج: المدينة القديمة - دراسة لعبادة الإغريق والرومان وشرعهم وأنظمتهم، ترجمة عباس بيومي بك، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007، ص 478.

⁶⁸ هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ، المجلد الثاني: العالم الشرقي، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثالثة، 2008، ص 214.

⁶⁹ فردريك نيتشه: الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مرجع سابق، فقرة 1، ص 40.

⁷⁰ المرجع نفسه، فقرة 1، ص 42. وكان نيتشه ينقل من الكتاب المقدس، حيث ورد في رسالة بولس إلى أهل كورنثوس في أنجيل يوحنا: الإصحاح الأول: رقم 22: اليهود يطلبون المعجزات، واليونانيون يبحثون عن الحكمة. نقلا عن:

بيير سيزار بوري وسافيريو مارشينيولي: أخلاق كونية لثقافات متعددة، ترجمة أحمد عدوس، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص 186.

الغربية تفوق الإغريق، أي قدرتهم على التفكير بمعزل عن التصورات الدينية. لكن سنرى لاحقا بأن هذه الدعوى يمكن ابطالها بأكثر من حجة مأخوذة من فلسفة الإغريق ذاتها.

على الرغم من أن أعمال جورج سارتون، مؤرخ العلم البلجيكي، تستعمل لتأكيد أهمية الموروث الشرقي في قيام الحضارة اليونانية ومن ثمة الأوروبية، إلا أنه هو ذاته ينكر توظيف تاريخ العلم من أجل اغراض ايديولوجية مثل تأكيد قوة هذه المركزية أو تلك. وعلى الرغم من أنه يشيد بأهمية العلم الشرقي، إلا لا يسترسل في تقوية وتزكية المركزية الشرقية أو الإفريقية. فهو يؤكد ضدا للمزاعم اليهودية بأن "المخطوطات اليونانية أقدم من المخطوطات العبرية حتى القديمة منها بقرون عديدة. لذا تجد علماء التوراة يرجعون إلى الترجمة السبعينية (اليونانية) التي يجدون فيها نصوصا عبرية قديمة لا نجدها اليوم في التوراة المكتوبة بالعبرية".⁷¹ وهذا ينسف دعوى المؤرخ اليهودي يوسفوس، وحتى عندما عرضنا فقرته في كتابه التاريخي لم نشعر بأنه قدم حجة عقلية قوية. وبالتالي فإن الاعتقاد الواهم عند اليهود القائل بأن لغتهم هي اللغة العالمية الأولى، مجرد زهو لا أساس له.⁷² وقد تكفل سبينوزا بإثبات بطلان العقليّة الطفولية التي يتمسك بها اليهود من كون المختارون والأكثر أصالة... الخ.⁷³ إن المركزية اليهودية لا تقل تصلبا وتعصبا عن أي مركزية أخرى، سواء شرقية أو إفريقية أو اغريقية أو أوروبية. وفي سياق تحليل المركزية الإفريقية متجسدة في المركزية المصرية القديمة يقول شايعان: "دعاوي المركزية الإفريقية: بعض هواة علماء المصريات الذين تصوروا أن أرسطو خطط لنهب مكتبة الأسكندرية، واستطاع أن يسرق الفلسفة من المصريين، ثم يدونها وينشرها باسمه. وتتمثل أيضا في أستاذة يخالون أنفسهم متوفرين على أدلة دامغة تثبت أن الملاحين الأفارقة سبقوا كريستوف كولمبوس إلى اكتشاف القارة الأمريكية بسنوات طويلة".⁷⁴ لا يمكن انكار أن كل مجتمع أنجز ما عليه انجازه بالنظر إلى مقدراته وظروفه واستجاباته، لكن التوكيد على أنه هو الأصل لكل ما توصلت إليه الإنسانية، هو الذي يعتبر مركزية لا يمكن تبريرها. وبالتالي ففكرة النقاء الكلي، مهما كان مصدرها لا يمكن أن تكون مطابقة للواقع التاريخي. فحتى الحكمة الإغريقية، "قد نشأت في مهد بشري، وفي ابان نموها كانت تعمل فيها مؤثرات أجنبية عنها سواء من انصارها أو خصومها".⁷⁵

ثالثا- النموذج الآري المعدل أو المنفتح.

⁷¹ جورج سارتون: تاريخ العلم، الجزء الخامس - العلم والحضارة الهلنستية في القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد: القرنان الأخيران ق م، ترجمة ليف من العلماء، دار المعارف بمصر ومؤسسة فرانكلين، القاهرة - نيويورك، الطبعة الثالثة، 1971، ص 50-51.

⁷² المرجع نفسه، ص 59.

⁷³ Spinoza: traité théologico-politique, traduit Charles Appuhn, édition Garnier - Flammarion, Paris, 1965, p 76.

⁷⁴ داريوش شايعان: هوية بأربعين وجها، ترجمة حيدر نجف، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد- دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2016، ص 78.

⁷⁵ جورج سارتون: تاريخ العلم، الجزء الثالث، الكتاب الأول: العلم القديم في العصر الذهبي لليونان 3- القرن الرابع، ترجمة ليف من العلماء، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1970، ص 19-20.

حسب برنال، فللنموذج القديم أخطاء وللنموذج الآري خطيئة. فلا يمكن أن نعتبر النموذج القديم تعبير مطابق للحقيقة التاريخية، إذ أن معظم المقاربات التي عملت على تتبع أصول الأفكار الإغريقية في إفريقيا، تنتهي إلى اعلان أصالة الشرق وهجانة اليونان،⁷⁶ وهذا ما لا يمكن قبوله بالمرّة. ثم أن برنال ذاته، يجعل أصول الكلمات الإغريقية الموجودة في الشرق والمناطق السامية مجرد تأويلات مقارنة بسبب التشابهات، وما عدا ذلك فلا يمكن أن نؤكد شيئاً. إن الغوص في النموذج القديم، يجعلنا نعتقد بأن الإغريق قاطع طرق حضاري لم ينتج شيئاً من عنده. فعلي الأقل استطاع الإغريق إضافة عنصر جديد للموروث الشرقي، وهو عنصر العقل الواعي بذاته وحرية، ودمقرطة هذا النوع من العقل هو الإنجاز العظيم لهم، في مقابل برجوازية العقل المفكر والحر في السياقات الشرقية. ما أنجزه الإغريق هو العقل كوعي باستقلاليته عن كل شيء خارجي، ومن هذه الحرية تولد العقل الإغريقي المحب للحكمة.⁷⁷ لكن لكل إنجاز حدود وعيوب، لأن تحديد مهمة الإغريق مقارنة بالتقاليد الشرقية القديمة، قد خلقت زاوية مظلمة عند البعض، ولدت ما يمكن تسميته "نزعة حب الأغريق" philhellenisme.⁷⁸ ومعلوم أن كل نزوع يعبر عن موقف غير مسيطر عليه علمياً وتاريخياً.

وحدة العبقرية الإغريقية والعبقرية الشرقية في شخصية فيثاغورس، فنظريته في النفس لا تتفصل عن المؤثرات الشرقية، فهي مأخوذة من الأورفية التي لا تمثل النموذج الإغريقي النقي، لأنها مرتبطة بالطقوس الديونيزوسية التي تعود أصولها إلى آسيا الصغرى. ثم أن نظرية العدد عند فيثاغورس، لا تمت بصلة إلى الرياضيات الإغريقية، وقد تحدث كاتبي سيرته عن رحلته المطولة إلى مصر. وصاحب مدرسة الخطابة، إيزوقراط، يؤكد المصادر المصرية لنظرية العدد عند فيثاغورس.⁷⁹ لكن هل يدل على أنه نسخة شرقية محضة؟ الأكد أن هناك شيئاً ما من الروح الإغريقي في فلسفته، وهو التفكير المنطقي القائم على العقل الواعي.

المشكلة الأساسية في النموذج الآري المتطرف، هو الفصل الحاد بين الفلسفة وغير الفلسفة. وهذا الفصل بالذات يطرح مسألة المعيار. فلا يمكن أن نحكم الفكر الشرقي بالمعايير الغربية هكذا بسهولة، لأنه من الممكن أيضاً، وبصورة معاكسة، أن نحكم الفلسفة الغربية بالفكر الشرقي. لهذا نجد مثلاً موريس ميرلوبونتي ينقد المعايير الهيجلية في تميز الفلسفة عن اللا فلسفة قائلاً: "إن هذا الامتلاك للذات للحق، الذي وحده الغرب اتخذه موضوعاً، يخطر مع ذلك في أحلام ثقافات أخرى، ثم أنه، في الغرب ذاته، غير متحقق. يمنعنا ما تعلمناه عن علاقات اليونان بالشرق التاريخية، وبالعكس، كل ما اكتشفناه "غربياً" في الفكر الشرقي (سفسطة، شكوكية، عناصر جدلية، منطقاً)، من رسم حدود جغرافية بين الفلسفة واللا فلسفة. فالفلسفة الخالصة أو المطلقة، التي باسمها يستبعد هيغل الشرق، تستبعد هي الأخرى قسماً لا بأس به من الماضي الغربي. قد يكون المقياس، حتى إذا طبق بدقة، لا يصح إلا على هيغل".⁸⁰ ويمتلك مرن متسع يشمل أكبر قدر من الممكنات، يتحدث "شارلز تايلور" عن تعدد النماذج في مقابل ضيق الوحدة

⁷⁶ مارتن برنال: أثينة السودان - الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، الجزء الثاني - المجلد الثاني: النهاية البطولية لعصر بطولي، مرجع سابق، ص 237. هناك تفاصيل لا يمكن سردها عن أخطاء النموذج القديم.

⁷⁷ Charles Werner: la philosophie Grecque, Op.cit, p 11.

⁷⁸ مارتن برنال: أثينة السودان - الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، ترجمة لطفي عبد الوهاب يحي، الجزء الأول: تليفق بلاد الإغريق، مرجع سابق، ص 443.

⁷⁹ Charles Werner: la philosophie Grecque, Op.cit, p 10-11.

⁸⁰ موريس ميرلو بونتي: تقرير الفلسفة، مرجع سابق، ص 147-148.

التي سادت في الأزمنة القديمة حتى عند البعض اليوم من ذوي المنطق الواحدي. فالحدث الفكري، وهي مسألة موقف وليست مسألة تاريخ معين، إذن أن للقدامى حدثاً وللأوسطيين حدثاً وللحدثاء حدثاً وللمعاصرة حدثاً، فلنا ليست على نموذج واحد، وقد صدق الدكتور "طه عبد الرحمن" عندما تحدث عن واقع الحدث وروح الحدث،⁸¹ بل أن كل حدث بمقوماتها تقوم بتقييم الأحداث الأخرى، لذا فلا يمكن أن نصدق المركزية الشرقية أكثر مما نصدق المركزية الإغريقية، وقس ذلك على البقية. يقول تايلور: "يجب أن تكف عن النظر إلى الحدث باعتبارها عملية وحيدة تكون أوروبا نموذجاً لها، وأن نفهم النموذج الأوروبي على أنه النموذج الأول (...)" فهو نموذج من بين نماذج كثيرة".⁸²

لا يمكن احتكار فهم واحد لتاريخ الفلسفة الإغريقية، فلئن كان الأغلبية من مؤرخي الفلسفة يثمنون الإنجاز الإغريقي مقارنة بسواها من خلال عقلانيتهم المفردة والتي لم يكشف عنها أي من الحضارات السابقة، مثلما يقول فيرايند مثلاً (توفي 1994) الذي لخص إنجازهم في العقلانية الفلسفة النابذة للشعرية والأسطورية.⁸³ فإن فيلسوفا ومؤرخاً آخر للفلسفة مثل نيتشه يعتبر العقلانية الإغريقية علامة انحطاط وسقوط. فهو يعتقد أن عظمة الإغريق تكمن في حسيتهم وحبهم المفرط للحياة وليس في فلسفتهم المجردة التي قتلت وأضعف كل الغرائز الحيوية.⁸⁴ لذا نجد أنه يقدم تأويلاً قائماً لسقراط وأفلاطون معاً.

ما يجعلنا نخفف من تضخم المركزية الإغريقية التي هي أثر رجعي للمركزية الغربية التي بدأت في النمو انطلاقاً من القرن الثامن عشر، هو التأكيد على استحالة مطابقة العقلانية الكلية لتجربة جماعية أو حضارية محددة الزمان والمكان. فلا يعقل لفيلسوف واسع النظر أن يؤكد على أن تجربة فكرية واحدة يمكن أن تستنفذ كل إمكانات العقلانية التي يمكن للقريحة البشرية أن تنتجها. وفي هذا السياق أظهر "طه عبد الرحمن" سعة فكر تجعلنا ننتيقن من ضيق فكر كل من هيجل ولايبنتز وهيدجر، رغم ثقلهم

⁸¹ طه عبد الرحمن: روح الحدث - المدخل إلى تأسيس الحدث الإسلامية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2006.

⁸² تشارلز تايلور: المتخيلات الاجتماعية الحديثة، ترجمة الحارث النبهان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، الطبعة الأولى، 2015، ص 222.

⁸³ بول فايريند (توفي 1994): ثلاث محاورات في المعرفة، ترجمة محمد أحمد السيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص 163-204. يقول تواليًا: اليونان القدماى كانوا بكل تأكيد أكثر الشعوب عقلانية (...). و أساطيرهم هي لون من ألوان الشعر (...). اليونان أرادوا استبدال الشعر بما هو أفضل (الفلسفة) أفلاطون نفسه يتحدث عن النزاع القديم بين الفلسفة والشعر (...). الصورة الشعرية للعالم، في رأي الفلاسفة، غير واضحة وكاذبة. فهل الصورة العلمية والفلسفية وقوانينها الصارمة أفضل من الصورة الشعرية؟ الحق أن فيرايندا يتحدث عن أسطورة العلم الحديث، مما يجعله يتجاوز عقدة العقلانية الخالصة سواء عند الإغريق أو الغرب الحالي.

⁸⁴ Friedrich Nietzsche : la volonté de puissance, tome I, traduit par Geneviève Bianquis, éditions Gallimard, 1995, § 262, p 315.

الفلسفي، عندما قالوا بانفراد الإغريق القدامى والألمان المحدثين بالفلسفة والعقلانية، حيث قال أن "العقل أغنى وأوسع من أن تحيط به عقلانية أمة ما أو عقلانية فترة ما أو عقلانية منطقة ما".⁸⁵ ولا أعتقد أنه يمكن نقض هذا القول، بما فيه من حكمة بالغة العمق والصدق. فالإغريق ذاتهم، في أوج نضجهم، لم يكونوا يتصورون أنهم قدموا كامل ما يمكن أن يقدمه العقل، بل أن روح الحكمة تكمن في هذا النقصان والسعي إلى الكمال دون نهاية.

بالنسبة لمشروع برنال الضخم، والذي خلق نقاشا عالميا كبيرا ومثمرا، فمن المفيد أن نحيل إلى مناقشة دقيقة وعلمية لمجل أفكاره، فقد عارضه "جاك غودي"، الذي اهتم بتقويض المركزية العربية من خلال تأكيد بأن هذه المركزية ليست وليدة الأزمنة الحديثة في القرن الثامن عشر، بل هي أقدم من ذلك. يقول: "إحدى المشكلات في رواية برنال هي مجادلته في أن التحول في التشديد من النموذج القديم إلى النموذج الآري يأتي فقط في القرن 19 مع تطور العرقية واللاسامية. من المؤكد أن هذه العواطف ازدادت قوة في ذلك الوقت، مع الهيمنة على العالم من أوربية بعد الثورة الصناعية (...). ومع ذلك ففي رأي أن الاتجاه إلى رفض الارتباط الشرقي يعود إلى الوراء إلى مشكلات أعم من "الجدور" وإلى مركزية عرقية إثنية، ازدادت سوءا مع توسع الإسلام من القرن السابع والهزائم الموجودة في الحروب الصليبية خسارة المسيحية للقسطنطينية. (المواجهة بين أوروبا المسيحية وآسيا الإسلامية). كان ينظر إلى الإسلام بوصفه تهديدا لأوربية (...). دانتي أودع محمد في الحلقة الثامنة من الجحيم".⁸⁶

خلاصة.

هل يحق لنا الحديث، في الحقل الفلسفية العقلي والعلمي، عن حدوث معجزة إغريقية؟ هذا هو السؤال الذي يطرح لإصحاب هذه العبارة حيث روجوها بكل حماس لا عقلاني. لأن أصحاب النموذج الآري الذي يثبت المركزية الإغريقية والاوربية لاحقا، يضع الخط الفاصل بين الفكر الشرقي والفكر الغربي في مستوى ميلاد العقل العلمي عند الإغريق. فهل يمكن أن نستخدم عبارة المعجزة العلمية الإغريقية؟ أو حتى المعجزة الفلسفية الإغريقية؟ إنه هذا الاستعمال متناقض في ذاته، على أساس أن العلم لا يأخذ بالتفسير الإعجازي الذي ينطلق من صفر المعرفة.

إن ربط المعجزة بالأرض، مثلما فعل الكثير، سواء أرسطو في القدامة أو مونتيسكيو في القرن الثامن عشر أو مؤرخي الحوليات الفرنسية أمثال فرندان بروديل الذي تخصص في المحور المتوسطي.⁸⁷ أقل قسوة وتطرفا بل وتهورا من ربط العبقرية بالعرق مثلما فعل البعض الآخر. ثم أن تعميم هذا التفسير الجغرافي لا يستقيم مع كل النماذج والحالات التاريخية.

⁸⁵ طه عبد الرحمن: فقه الفلسفة - الجزء الثاني القول الفلسفي: كتاب المفهوم والتأثيل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2005، ص 300.

⁸⁶ جاك غودي: سرقة التاريخ، مرجع سابق، ص 100.

⁸⁷ فرانسوا دوس: التاريخ المفتت - من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2009، ص 211. يقول: "بروديل: يمر الناس المؤسسات البحر الأبيض المتوسط باق، فمنطقة الأتيك

لكن لا يجب أن نخنق الفكر الغربي لأنه تلفظ بعبارة المعجزة، فهي ولو أنها لا تدل على فعل إلهي أو فضيلة عرقية، إلا أن الإنجاز الفلسفي والأدبي والميثولوجي للإغريق يستحق فعلا الإعجاب. والحق يقال، أننا جميعا، وعندما نتحدث عن أمجادنا السابقة، التي تنتمي إلى ثقافتنا، فإننا نستعمل عبارة تضخيمية وتقزيمية. وهذا ما حصل لأصحاب النظرية الإغريقية، فنحن نستعمل، يقول جورج سارتون، "لفظ معجزة للتعبير عن اعجابنا وحيرتنا".⁸⁸ المعنى الأصلي لكلمة *miraculum* هو الشيء المدهش أو العجيب. فمن الناحية الدينية تدل على علامة إلهية أو نبوية أو فعل للقوة الإلهية.⁸⁹ لكن من الناحية النفسية تدل على الإعجاب والعجز عن تفسير ظهور الأفكار والمعتقدات نظرا للفارق الزمني وغياب المعطيات اللازمة للتركيب والتشكيل الذي يؤسس للفهم. وعندما يتحدث عالم اجتماع مرموق مثل "إدغار موران" عن المعجزة الإغريقية، فلا يجب أن تفهم بالمعنى السلبي المطلق المنفصل عن أي شروط تاريخية. يقول محددا مفهوم المعجزة عند إغريق القرن الخامس في الجزء الرابع من كتابه الموسوعي المنهج: "كانت هناك فعلا معجزة في أثينا ق 5: أي فرصة قصوى لاجتماع شروط تسمح بهذا الازدهار، من ضمنها الانتصار غير المتوقع على الفرس (سالامين 480 ق م) منذ ذلك شرعت القاعدة الديمقراطية، في مدينة بريلكيس، النقاش السياسي في الساحة العمومية. وتشكل النقاش الفلسفي وفق هذا النموذج، فقامت، انتلجيسيا من البلاغيين والسفسطائيين بمناظرات فكرية في ساحة الأوغورا".⁹⁰ وبهذا فإن استعمال عبارة "المعجزة" تكون مبررة من ناحية التقاء عوامل متباعدة وخلق ظروف استثنائية. ولإلنا حتى اليوم نتحدث عن المعجزات الطبية والعلمية والسياسية... الخ دون أي مضمون متعال عن الوضع البشري.

يركز البعض الآخر من الفلاسفة على عامل الدين في تبرير نبوغ الإغريق الفلسفي. إذ يفترضون أن هناك تضافر بين الاستبداد السياسي والاعتقاد الديني بالوحدانية. إذ أن وحدة الخالق يستلزم وحدة الحاكم. في حين أن الإغريق، ولئن ليس لهم كتابا مقدسا، مثلما يقول نيتشه وبارتليمي سانتيلير، فإنهم لم يكبلوا بمبدأ الحقيقة والوحدة أو الحقيقة الواحدة. ويعبر راسل بوصفه فيلسوفا ملحدا عن هذه الفكرة قائلا: "كل فكرة الله أتت من الطغيان الشرقي القديم، إنها فكرة غير صالحة أبدا للفرد الحر".⁹¹ وفي هذه

Attique (في الغرب اليوناني) منطقة فقيرة بطبيعتها، وهي لذلك محكومة بتجاوز ذاتها، وهكذا ولدت المعجزة اليونانية. إن التاريخ الجغرافي يثير العوامل الحضارية دون وساطة.

⁸⁸ جورج سارتون: تاريخ العلم، الجزء الأول، الكتاب الأول: العلم القديم في العصر الذهبي لليونان - 1 الأصول الشرقية واليونانية، مرجع سابق، ص 347. يقول في صفحة سابقة هي 287: يتحدث الناس كثيرا عن المعجزة اليونانية، لأن هذه هي أبسط وسيلة للتعبير عن اعجابهم بما وصل إليه اليونان، وعن عجزهم أن يجدوا له تعليلا.

⁸⁹ المرجع نفسه، ص 405.

⁹⁰ إدغار موران: المنهج - معرفة المعرفة - الأفكار، ترجمة يوسف تيبس، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013، ص 293. ويقول وليام جيمس بنفس النبرة: الازدهار المفاجئ للإغريق والروم القديمة، وعصر النهضة، كان سرا من الأسرار الغامضة. يرجى العودة ل: وليام جيمس: إرادة الاعتقاد، ترجمة محمود حب الله، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، 1946، ص 62.

⁹¹ برتراند راسل: ما الذي أؤمن به؟ مقالات في الحرية والدين والعقلانية، ترجمة عدي الزعبي، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 2015، ص 81.

الخصيصة الجزئية، تفارق الإغريق عن بقية الثقافات التي تأسست على الأديان المسماة ابراهيمية. ولعل وجود دين بلا كتاب، ما عدا كتاب الشعر الهومييري وغيره، قد حرّض الإغريق القدامى على التفكير فيما وراء الحقيقة الناجزة.⁹² لكن يجب التنبيه إلى أن مجمل النظام الأثيني قد طبق العديد من المحاكمات لأسباب دينية وما مثال سقراط إلا حالة من بين عديد الحالات. ثم أن استعمال ورقة انعدام القول الإلهي كمحرض لنشأة الفلسفة، استعمال لا يمكن تعميمه على كل الحالات، إذ نجد مثلا المفكر الهندي، أمارتيا سن، يتحدث، وفي بعض الأحيان يفتخر بالتقليد الهرطقي الهندي الموهل في القدم،⁹³ وعلى الرغم من ذلك لم تنتج أي فلسفة في مستوى فلسفة الإغريق. وقد لاحظ "بول فاين" بأن الاعتقاد بتعدد الآلهة هو الذي يحرض على قبول الحقيقة المتعددة وعدم غلق مجالات التفكير والتعارض بين عدة حقائق؛ "فالإله الغيور لا يحتمل أي شركة، بعكس الآلهة الوثنية التي كانت متسامحة في ما بينها، لا يلغي أي منها الآخر، لأنها كلها حقيقية".⁹⁴ تبقى دائما مشكلة التعميم، إذ أن المجتمعات الشرقية كانت وثنية لكنها لم تبدع فلسفة، مما يجعلنا نفترض وجود خصوصيات متفردة عند الإغريق. فالوثنية العربية لم تنتج فلسفة بقدر ما أنتجت شعرا، وهذه الظاهرة جديرة بالتقصي والتفسير مقارنة بالوثنية الإغريقية التي أنتجت فكريا فلسفيا أصبح عالميا في التسمية والمضمون.

يبدو أنه من التناقض القول بحدوث معجزة اغريقية، رغم ما يمكن أن نعذر به لمن استخدم هذه العبارة، إلا أن المحك الفلسفي والعقلاني الصارم يأبى قبول وجود معجزة. لأن مدلول المعجزة هو انبثاق الشيء من اللا شيء، في حين أن مبتدأ الفكر الإغريقي الفلسفي هو أنه لا وجود لشيء من لا شيء. إن الحديث عن وجود معجزة هو حديث المتأخرين زمانيا، ولم يكن الإغريق ذاتهم يعتقدون بأنهم أعجزوا العالم، لأنهم على علم بتفاصيل تشكل فكرهم ومصادرهم التي قد نعلم بعضها ونجهل البعض الآخر. ثم أن الفلاسفة الغربيين المعاصرين، كل بمذهبه وكل بتوجهه، قد اكتشفوا مدى محدودية العقلانية الإغريقية، بل أن العقل الإنجليزي المعاصر مثلا، لن يتوان في وصف العقل الإغريقي بالشاعرية والمجازية،⁹⁵ مقارنة بالنضج العقلاني الحاصل اليوم. والتفوق العقلاني الحالي، سيبدو من بعدنا بقرن أو قرنين، أنه ممتلئ بثغور وفجوات لا يمكن السكوت عنها. لذا فلا رد لهذا الزعم باكتمال العقلاني في زمن ما أو مكان ما إلا ما كتبه "طه عبد الرحمن" عندما قال: "جعل المؤرخون الفلسفة القديمة كلها من صنع اليونان

⁹² جورج سارتون: تاريخ العلم، الجزء الأول، الكتاب الأول: العلم القديم في العصر الذهبي لليونان - 1 الأصول الشرقية واليونانية، مرجع سابق، ص 398.

⁹³ أمارتيا سن: الهندي المولع بالحجاج - كتابات عن تاريخ الهند وثقافتها وهويتها، ترجمة فاضل جتكر، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، الطبعة الأولى، 2018، ص 12.

⁹⁴ بول فاين: هل اعتقد الإغريق بأساطيرهم؟ بحث في الخيال المكون، ترجمة جورج سليمان، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، الطبعة الأولى، 2016، ص 239.

⁹⁵ برتراند رسل: النظرة العلمية، ترجمة عثمان نويه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015، ص 7.

وحدهم كما لو أن معاني "الإنسانية" والعقلانية والعرفانية لم تبتدأ إلا معهم، ونسبوا على زلاتها إلى عبقرية شهبوا ظهورها بنزول الملائكة وارسال الأنبياء.⁹⁶

إن التفسير الإعجازي أو الانفصالي لنشأة العقلانية الإغريقية المسماة فلسفة، لهو تفسير غير عقلائي بالمرّة. لأنه عاجز عن الكشف عن تفاصيل هذا التشكل ودقائق العلاقات التي استجمعت مجموعة من الظروف لطرح السؤال الفلسفي في ملطية. لكن هذا لا يبرر للتوجهات المركزية الشرقية، سواء كانت آسيوية أو أفريقية، أن تقلل من شأن الإسهام النوعي الإغريقي. فالسؤال الذي لا يمكن لأي كاره للإغريق أن يتجنبه هو التالي: ماذا كان يسمى الفكر الشرقي؟ يمكن أن نسميه كل شيء ما عدا الفلسفة! لأن كلمة الفلسفة صناعة إغريقية خالصة، وكل لغات العالم اليوم، تستعمل الجذر الإغريقي، لذا، فإن كان هناك نقول إغريقية من الشرق، فهي نقول غير فلسفية، يمكن أن نسميها فكرا أو تأملا أو دينا أو شعرا أو معرفة... الخ لكن لا يمكن أن نسميها فلسفة، لأن الكلمة لم تكن متداولة أصلا.

لقد تنبه مارتن برنال إلى أن النموذج الآري المتطرف كان نتيجة لظروف سياسية وعسكرية أكثر مما هو نتيجة لدراسات علمية متأنية بمعزل عن أي توجه إيديولوجي. وحتى التوجه الإغريقي الكاره للبرابرة والشرقيين على وجه الخصوص لم يتشكل إلا بعد معركة سلاميس في القرن الرابع. وتعتبر كتابات ثيوسديدس التاريخية مثلا على التكتّم عن كل نقول غير إغريقية، وهذا يدل أنه انخرط في هذا التقليد غير العلمي، لأنه ناتج عن غلبة عسكرية ضد الشرق المنافس. لذا فإن التكتّم لأصول الفكر، يتأسس من مواقف إيديولوجية محددة ومغلقة لخدمة ظروف أنية.

في الوضع العالمي الحالي، يمكن الحديث عن خلخلة للنموذج الآري أو المركزية الإغريقية، لكنها خلخلة نسبية لا تدل على التغيير المطلق. فمع النمو الاقتصادي والعسكري لدول شرق آسيا، فإن تهميش الثقافة الصينية واليابانية لم يعد واردا. لكن ما زال النظام العالمي الحالي نظاما غريبا، والكل يدور حول هذا المركز. لذا فإن القوة الحالية للغرب، هي من تصنع أساطيره الماضية. ألم يقل نيتشه في دروسه التاريخية بأنه "يمكنكم انطلاقا من القوة العظمى للحاضر فقط أن تفسروا الماضي".⁹⁷ وهذه الظاهرة أنثروبولوجية مثل المركزية بالذات. فقوة الحاضر تعيد تفسير وتشكيل وتأويل الماضي كلية. وهو نفس المبدأ الذي اكتشفه المؤرخ والمفكر الإنجليزي كولنجوود الذي اعتقد أن التاريخ مجرد خرافة يصنعها العقل وفق متطلباته، حيث يقول "بأن الحاضر وحده هو الحقيقي (عكس أوغسطين الذي يتشكك في مجرد وجود الحاضر)".⁹⁸ بل أكد على "استحالة فصل الماضي عن حاضر المؤرخ، لأن

⁹⁶ طه عبد الرحمن: فقه الفلسفة - الجزء الثاني القول الفلسفي: كتاب المفهوم والتأثيل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2005، ص 41.

⁹⁷ فريدريش نيتشه: محاسن التاريخ ومساوئه، ترجمة رشيد بوطيب، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، الطبعة الأولى، 2019، فقرة 6، ص 57.

⁹⁸ جون لويس غاديس: المشهد التاريخي - كيف يرسم المؤرخون خارطة الماضي؟ ترجمة شكري مجاهد، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، الطبعة الأولى، 2016، ص 46.

الحاضر هو محل إجراء التجارب الذهنية".⁹⁹ وبالتالي فإن المركزيات الحضارية هي من تساهم في تشكيل أو إعادة تشكيل أو توجه الماضي لوجهات نفعية راهنية.

في تقديرنا، فإن الخلاف بين التوجهين الغربي والشرقي، هو في تحديد إن كانت "الفلسفة قبل الفلسفة"، على حد تعبير بيار هادو،¹⁰⁰ فلسفة حقيقية أم أنها لا فلسفة بالإطلاق. لأننا ملزمين أن نقول بأن الفلسفة السابقة على الإغريق لم تكن فلسفة، وهذا ليس انتقاصاً منها، بل لأنها لم تكن تحمل هذا الاسم بالذات. وإن أردنا أن نسميها فلسفة فيجب أخذ المعايير الإغريقية، لكن أصحاب التوجه المضاد للأغرقة يرفضون الخضوع لها. وهنا مأزق التوجه الشرقي، إنه يريد الاعتراف بوجود فلسفة شرقية سابقة على الفلسفة الغربية، في نفس اللحظة التي يرفض الخضوع للمعايير الإغريقية في تحديد الفلسفي واللا فلسفي.

⁹⁹ المرجع نفسه، ص 59.

¹⁰⁰ Pierre Hadot: qu'est- que la philosophie antique ? Édition Gallimard, Paris, 1995, p 27.